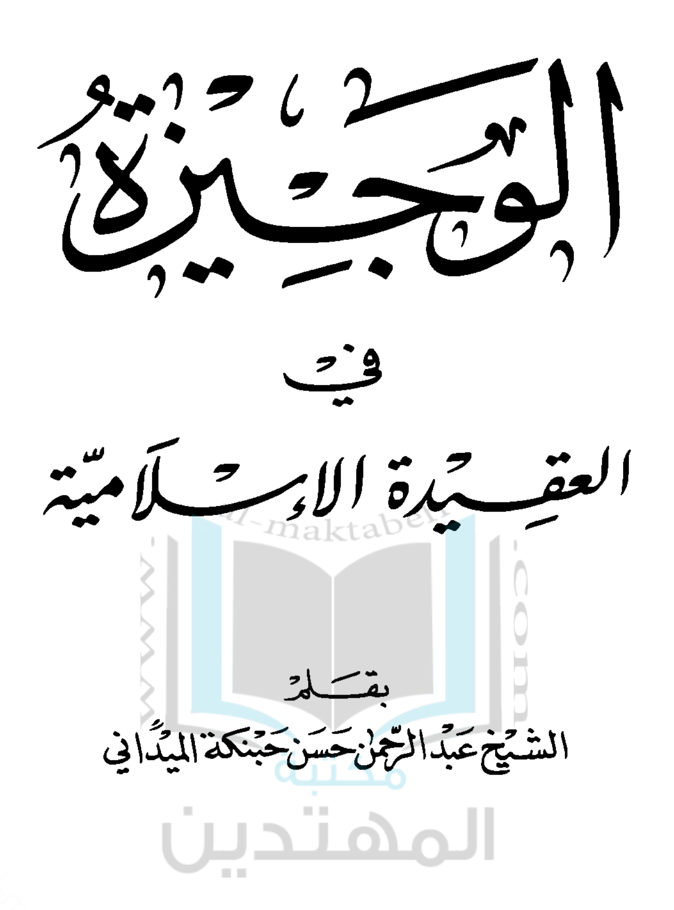

رسائل تذكير وتبصير
١
الوجيزة
في
العقيدة الإسلامية
بقلم
الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

رسائل تذكير وتبصير
(١)

الوجيزة

في

العقيدة الإسلاميّة



بقلم
الشيخ عبد الرّحمن حسن حبنكة الميداني

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع



الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت . لبنان . ص.ب ١٤/٥١٣٦ السجل التجاري في بيروت رقم ٥ / ٧٤٢١



المقدمة

الحمد لله الذي أفاض رحمته فامتنَّ على بني آدم بالهداية إلى صراط النجاة والسعادة، فأنزل عليهم قواعد الإيمان ومبادئه وأسسه، وأنزل عليهم شرائع الإسلام وأحكامه، وفصّل لهم ما به سعادتهم، واصطفى لهم الدين حقّاً وصدقاً، وخيراً وعدلاً، وجمالاً وفضلاً، وأعلن أن الدين المقبول عنده هو الإسلام، واصطفى لتبليغه وهداية الناس إليه الأنبياء والمرسلين، فبدأهم بآدم أبي البشر، وختمهم بمحمد بن عبد الله الذي أكمل ـ بما أُنزل عليه ـ الدين للناس أجمعين، وأتمَّ به نعمته عليهم، وأعلن فيه أنّه قد رضي لهم الإسلام ديناً.

فمن رضي بالله ربّاً فآمن به، وأعلن عبوديته له

وحده لا شريك له، ورضي بالإسلام ديناً فآمن به وبعقائده، وأعلن التزامه بشرائعه، ورضي بمحمد بن عبد الله نبيًّاً ورسولاً، فآمن به وبما جاء به عن ربِّه، وأعلن ولاءه وطاعته له، واتباعَه له في بلاغاته، وبياناته، ومنهاجه، وسنته، فقد ضمن لنفسه أكبر مقدار ممكن من السعادة الحقيقية في ظروف هذه الحياة الدنيا، وضمن لنفسه النجاة يوم الدين من عذاب جهنّم التي أعدها الله لمن أبى أن يستجيب لدعوة الإسلام، وضمن لنفسه الخلود الأبدي في نعيم الجنة التي أعدّها الله للمؤمنين الذين استجابوا لله والرسول، في الدعوة إلى الدين الحق، وإلى الصراط المستقيم صراط الهداية والرشاد.

وبعد: فهذه خلاصة موجزة من العقيدة الإسلامية، استخلصتها من كتابي الموسَّع (العقيدة الإسلامية وأسسها) قصدت منها أن تكون ميسّرة قريبة التناول، يستطيع المثقف العاديّ أن يقرأها ويفهمها، فَيُلِمّ بأمّهات قواعد العقائد الإيمانية التي هي أساس الدين، وبأدلتها الكافية لإقناع طالب الحقّ الحريص على سعادته الحقيقية العاجلة والآجلة.

وهذه القواعد من العقائد الإيمانية، مع أدلّتها

العقلية والنقلية، مقتبسةٌ من القرآن والسنة، ومنهجهما في الاستدلال بالحجج والبراهين، وهي على طريقة أهل السنة والجماعة وسلف هذه الأمة المحمدية.

والله من وراء القصد، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى سائر إخوانه النبيين والمرسلين، وآل كلٍّ وصحب كلٍّ أجمعين.

مكة المكرمة في غرّة رجب سنة ١٤٠٢ هجرية.

عبد الرّحمن حَبَنَّكة الميداني

عضو هيئة التدريس

بجامعة أم القرىٰ

مقدمات

١ ـ معنى العقيدة:

إننا نعتقد بوجود أشياء كثيرة من ذوات وصفات مدركة بالحواس وغير مدركة بها، ونجد قلوبنا مطمئنة بما نعتقد به ليس فيها أدنى شكّ، كاعتقادنا بوجود ذواتنا وصفاتنا، وكاعتقادنا بوجود أشياء كثيرة من حولنا في الأرض والسماء، وكاعتقاد علماء الطبيعة بالجاذبية، وبالطاقات الكمينة في الكون التي لا تدركها أجهزة الإحساس في الناس.

ولو جاءنا الناس كلّهم أو جلّهم يحاولون تشكيكنا فيما نعتقد به لم يؤثروا بنا أيّ أثر.

ذلك لأنّ علمنا بهذه الأشياء قد تحوّل من ساحة الإدارك الحسّي، أو دائرة الاستنتاج العقلي إلى خزانة العلم والمعرفة في عقولنا.

ثمّ بمرور الزمن وتوارد الشواهد والأدلة التي تصدّق

علمنا ـ ولو من غير شعور ظاهريّ منا ـ يتغلغل علمنا هذا في خزائن علومنا ومعارفنا إلى أعمق المراكز وأثبتها في داخلنا، وعندئذٍ يكون علماً راسخ الأسس، ثابت البنيان، متين القواعد.

ومتى استقرّ فينا العلم هذا الاستقرار الراسخ، نرى أنه قد أصبح يوجّه كثيراً من تصرّفاتنا وأفعالنا، ويحرّك كثيراً من عواطفنا، دون شعورٍ ظاهريّ منا.

ذلك لأنّه كما انعقدت أفكارنا وعقولنا على معرفته معرفةً غير قابلةٍ للتشكيك، انقعدت عواطفنا عليه انعقاداً يصرّف أفعالنا وحركاتنا، وحبّنا، وبغضنا، بطريقة شعورية أو بطريقة غير شعورية.

ومتى بلغ شعورنا بالشيء إلى حدٍّ يحرّك عواطفنا ويوجّه سلوكنا حمل اسم (عقيدة).

والعقيدة في الإسلام يجب أن ترتكز على ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى: الحقيقة العلميّة (اليقين).

القاعدة الثانية: طمأنينة القلب بها.

القاعدة الثالثة: الاعتراف والتسليم بمضمونها، وهو قرار إراديٌّ داخليٌّ بالتَّصْديق.

٢ ـ أهمية العقيدة في كيان الإنسان:

يتسم سلوك الحيوان بأنه مظهر من مظاهر دوافعه

وغرائزه المنضبطة فِطرياً بحدود حاجاته ومصالح جسده، فإذا أشبعت حاجاته كفَّ وعفَّ، وقلَّما يتجاوز الحيوان حدود ما ينفعه إلى ما يضره، وذلك بكوابح من غريزته.

أما الإنسان فقد جعلت غرائزه ودوافعه وأهواؤه وشهواته رَعِيَّةً تحت سلطة إرادته الحرة، ومنح بالإضافة إلى إرادته عقلاً يمكن أن يدرك فيه خيره وشره وما ينفعه وما يضره، ليكون الموجه لإرادته والمحرك لعواطفه، فإذا استرشدت إرادته بعقله وكان إدراكه للأمور صحيحاً سليماً استقام سلوكه بمقدار سلامة وصحة إداركه للأمور. وإذا تخاذلت إرادته فخضعت لأهوائه وغرائزه وشهواته ودوافعه ومطالب نفسه كان كالأنعام بل كان أضل سبيلاً، لأن هذه العناصر في نفسه لا كوابح لها من أصل فطرتها، بعد أن منح الإنسان البديل عن هذه الكوابح من عقله وسلطان إرادته، وحين تصبح هذه العناصر هي الحاكمة على إرادة الإنسان وهي صاحبة السلطان تأخذ به إلى إفراط أو تفريط يضره ويهلكه.

وحين نلاحظ أنواع سلوكنا العادي في الحياة نجد أنَّ إراداتنا تتصرف بتوجيه من مفاهيمنا الثابتة في نفوسنا، وهذه المفاهيم الثابتة تمثل فينا مجموعة عقائدنا في الحياة. ومثال ذلك أننا لا نضع أيدينا في النار لأن لدينا

مفاهيم ثابتة عن النار، وهذه المفاهيم توجه إراداتنا إلى أنواع خاصة من السلوك تجاه النار، فنحن نعتقد أن النار تحرق، ونعتقد أن الحريق إذا مسَّ أجسادنا آلمنا، وأتلف من أجسامنا ما نحن بحاجة ماسَّة إليه، وكل ذلك مكروه لنا، لذلك فإننا نوجه إراداتنا للكفِّ عن كل تصرف نكره نتائجه وعواقبه. ولنفس الأسباب فإننا لا نشرب كاساً لذيذة نشتهيها إذا سقط فيها سمٌّ قاتل.

من هذا ندرك أهمية مفاهيمنا الثابتة ـ وهي مجموعة عقائدنا ـ في توجيه إراداتنا إلى أنواع من السلوك نتصور أنها تجلب لنا مصلحة أو نفعاً أو لذة، وهذه أمور نحبّها. أو نتصور أنها تدفع عنا مفسدة أومضرة أو ألماً وهذه أمور نكرهها. والمفاهيم متى غدت ثابتة راسخة في نفوسنا واطمأنت قلوبنا إليها وأصبحت عواطفنا تتأثر بها كانت عقائد راسخة لدينا، وهذا المستوى من رسوخ المفاهيم مع طمأنينة القلب إليها وتأثر العواطف بها هو ما يطلق عليه لفظ (الإيمان) ومشتقات هذا اللفظ.

وهذا الإيمان هو الركن الأساسي الذي بدأ الإسلام به في تكوين شخصية المسلم لأنه هو الجذر الأول في بناء شخصيته، وهو العنصر الأساسي المحرّك لعواطفه والموجِّه لإرادته. ومتى صحَّت عناصر الإيمان في إنسان ما استقامت الأساسيات الكبرى لديه فسلك طريق الحق

والخير والرشاد، واستطاع التحكم بأنواع سلوكه وضبطها فيما يدفع عنه الضر والألم والمفسدة؛ العاجل من ذلك والآجل، وفيما يجلب له النفع واللّذة والمصلحة؛ العاجل من ذلك والآجل، وهذا ما يطلبه منا الإسلام.

وقد أدرك حديثاً الباحثون من غير المسلمين قيمة العقائد في توجيه سلوك الإنسان فبدؤوا يتحدثون عنها تحت عنوان (أيديولوجيات)؛ ولكنهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى المستوى الذي وصل إليه الإسلام؛ إذ هو يبني في الفرد المسلم إيماناً لا يضارعه ولا يشابهه أي عنصر اعتقادي (أيديولوجي) يحاولون غرسه في نفس الفرد من أفرادهم.

٣ ـ أعظم مطالب الإنسان في الحياة:

اتفق الباحثون من الفلاسفة وأهل الملل والنحل وأصحاب المذاهب وكل ذي فكر معتبر في الحياة على أن بلوغ السعادة أعظم مطلب ينشده الإنسان في الحياة. ويبحث الناس عن الوسيلة التي يمكن أن تحقق لهم السعادة المنشودة.

فيتصورها طلاب المال بجمع أوفر نصيب منه، فيجرون وراء تحصيله وجمعه، ثم يكتشفون بالتجربة أن المال ربما كان سبباً لمتاعبهم وآلامهم وشقائهم، وأنه

ليس هو الجسر الموصل إلى السعادة. ويتصورها طلاب الجاه والسلطان بالظفر بأكبر نصيب منهما، فيجرون وراءهما ويقاتلون من أجلهما، فإذا ظفر منهم ظافر بما يريد لم يجد أن الجاه والسلطان من أسباب ظفره بالسعادة المنشودة، وربما اكتشف بالتجربة أنهما كانا من أسباب متاعبه وآلامه الكثيرة وأنه قد اجتاز جسراً إلى غير الغاية التي ينشدها.

وهكذا نجد طلاب اللذة والاستمتاع بالشهوات ينتهون بعد التجربة إلى أنها لم تحقق لهم السعادة المنشودة، بل قد تجلب لهم آلاماً ومتاعب كثيرة مقيمة، وأما لذاتهم فقد كانت بمثابة رذاذ يبرد حرارة حاجات النفس، ثم يجف هذا الرذاذ بسرعة، ولا يبقى منه إلاّ الذكرى، وقد يخلف عواقب سيئة مؤلمة إذا لم يكن محدوداً بحدود المصلحة العاجلة والآجلة، وبحدود الخير الذي أذن الإسلام به.

ولدى الملاحظة نجد أن المؤمنين بالإسلام يحسون بمشاعر السعادة في قرارة نفوسهم، ويذوقون حلاوة طمأنينة القلب، وإن لم يكن لديهم ما يحبون من مال أو جاه أو سلطان، وإن لم ينالوا ما يشتهون من لذات جسدية في الدنيا، ويشعرون أيضاً بهذه المشاعر السعيدة

الحلوة وإن كانت أجسادهم تعاني آلاماً مرّة، لأنهم يؤمنون بأن رضا الله يحفهم، وبأن سعادة أخروية عظيمة دائمة مقيمة لا ترحل تنتظرهم بفضل من الله ورحمة، وأن غَمْراً من اللذات وأنواع النعيم قد أعد لهم في جنات الخلد، فهم يعيشون في أجواء هذا الرجاء الحلو سعداء، وهم سيكونون بها يوم الدين في واقع تطبيقي سعداء سعادة لا يستطيع التصور الحالي أن يصل إلى إدراك مستواها العظيم.

فالإيمان الذي جاء به الإسلام هو الكفيل بتحقيق أعظم ما ينشده الإنسان في حياته، إنها السعادة الخالدة العظمى، التي تبدأ في الحياة الدنيا بطمأنينة القلب ورضاه، وبالأمل الحلو الدائم بالخلود السعيد المغمور بأعظم ألوان النعيم، وتنتهي بواقع تطبيقي نفسي وجسدي وروحي يُصيبب فيه المؤمن من السعادة الخالدة ما هو فوق مستوى التصور والأمل.

٤ ـ الأسئلة الكبرى الملحَّة في نفس الإنسان:

ثلاثة أسئلة تُلِحُّ على الإنسان في داخله وتضعه أمام مشكلات ثلاث يطلب حلّها، فإما أن يعيش في قلق وحيرة تجاهها، وإما أن يطرحها عن فكره طرحاً كليّاً، ثم يعيش في دوّامة. كما تسيره مطالب حياته، وإما

أن يظفر بحلها حلاً صحيحاً يطمئن إليه قلبه، وتهدأ إليه نفسه فيسير في حياته بهديه.

أما السؤال الأول فهو:

من الذي أوجدني بعد أن لم أكن شيئاً مذكوراً؟

وأما السؤال الثاني فهو:

ما هي الغاية التي وُجدتُ من أجلها مزوَّداً بخصائص من عقل وإرادة حرة، وغرائز وأهواء وشهوات في حياة ذات مسالك متشعبة فيها الخير والشر؟

وأما السؤال الثالث فهو:

إلى أين المصير بعد عبور جسر هذه الحياة، وما هي النتائج التي تترتب على أعمالي فيها؟

وقد أعطانا الإسلام الأجوبة على هذه الأسئلة الملحّة، ولفت أنظارنا إلى الأدلّة العقلية والبراهين الواقعية التي تدل عليها، وقدَّم لنا الحل لأكبر المشكلات المحيِّرة للإنسان في هذه الحياة.

فأبان لنا أن الله هو الذي خلقنا من العدم، وقدم لنا الأدلة على ذلك من ظواهر الكون ومن أنفسنا،

وعرَّفنا أنَّ الله أزليٌّ أبديٌّ، له كل صفات الكمال، وهو منزه عن كل صفات النقصان. وأبان لنا أن حكمة الله اقتضت أن يخلقنا بهذه الخصائص التي منحنا إياها ليمتحننا ويبلو إراداتنا في ظروف هذه الحياة، وقدَّم لنا الأدلة القطعية على ذلك، وهي الأدلة المستندة إلى حكمة الخالق وعلمه وقدرته.

وأبان لنا أنَّ وراء هذا الامتحان حكمة الجزاء بالثواب أو بالعقاب، وأن الجزاء الأمثل لا يكون في ظروف هذه الحياة الدنيا، وإنما ادّخره الله لحياة أخرى تكون بعد هذه الحياة، فإليها يكون المصير، ووضع في أيدينا الأدلة اليقينية الدالَّة على ذلك، وهي الأدلة المستندة إلى حكمة الخالق وعلمه وقدرته.

وحين يجد الإنسان الجواب الصحيح على هذه الأسئلة الثلاثة تنحلّ لديه المشكلات الكبرى في تصوّراته لهذه الحياة، وتتضح معالم الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه.

وقد يتفرّع عن هذه الأسئلة الثلاثة أسئلة أخرى، وتأتي مفاهيم العقيدة الإسلامية فتجيب عليها الجواب الصحيح، المقرون بالأدلة والبراهين القاطعة، منها الأسئلة التالية:

١ ـ من الذي يبلّغنا عن الله موادّ امتحاننا؟

والجواب: الرسول المؤيَّد من الله بالمعجزات.

٢ ـ كيف يتصل الله بالرسول؟

والجواب: بالوحي الذي يصطفي الله له بعض عباده.

٣ ـ هل ينزل الله لنا بيانات تكون فينا نصوصاً ينقلها خَلَف عن سَلَف؟

والجواب: نعم، ينزل الله كتباً هي الكتب السماوية الربّانية.

٥ ـ كيف أنشأ الإسلام القاعدة الإيمانية:

من الواضح أن أسس القاعدة الإيمانية في الإسلام أسس فكرية علمية منطقية، ولذلك فإن الطريق إلى إنشاء هذه القاعدة إنشاءً صحيحاً يجب أن يعتمد على منطق الفكر القويم، والعلم الصحيح، وهذا ما لجأ إليه الإسلام في إنشاء قاعدته الإيمانية.

وطريقة الإقناع القرآني بعناصر القاعدة الإيمانية هي التي هدتنا إلى هذه الحقيقة، أما خطة الإنشاء فقد بدأت بتحرير أرضية النفوس من كل العقائد الباطلة التي ليس لها أساس منطقي أو علمي، وذلك بوسائل الإقناع

الهادىء، والمناظرة الحكيمة الخالية من التعصب الذميم ومن كل ظلال له، وقد اعتمد على الوسائل المنطقية العقلية والعلمية.

وعقب تحرير النفس من جذور العقيدة أو العقائد الباطلة تنتقل الخطة إلى غرس أوَّليات العقيدة الإسلامية في أرضية نفسية حرّة من الشوائب، ثم يجري تعهد الغراس بالتغذية والإنماء، وبإضافة العقائد التي تشتق منها، وتلزم عنها، وبالعمل على متابعة تحرير ما تبقّى في أرضية النفس العامة من كل عقيدة باطلة، وغرس العقائد الصحيحة في أمكنتها وتعهدها بالتغذية والإنماء.

وكان لأسلوب التدرج أثره العظيم في كل مرحلة من مراحل العمل، وهو الأسلوب الذي تقتضيه سنة الإنشاء السائدة على كل شيء في هذا الكون، وهي سنة الخالق في الخلق.

وأسلوب التدرج في إنشاء القاعدة الإيمانية يكون بالبدء بما يقع منها موقع الأساس، وهو الإيمان بالله، وبوحدانيته، وبسائر صفاته العظمى، ثم الانتقال إلى ما يلزم عن هذا الأساس الأول من عقائد مع التدرج في ذلك وفق التسلسل المنطقي. والوسيلة الأولى إلى كل ذلك إقامة البراهين والأدلة العقلية والعلمية المستندة إلى

البدهيات المسلَّمة لدى عقول المخاطبين، كقانون السببيَّة المسيطرة على أحداث الكون، وقانون حاجة الممكن إلى مخصِّص، وحاجة الحادث إلى محدث، وحاجة ظاهرة الإتقان إلى فاعل متقن، وحاجة ظاهرة العدل والحكمة إلى عليم عادل وحكيم. . . وهكذا.

وبعد هذه الوسيلة الإقناعية تأتي وسيلتا الترغيب بالمثوبة والترهيب من العقوبة العاجل من ذلك والآجل.

ونظرة إلى عناصر القاعدة الإيمانية تكشف لنا أن الإيمان بربوبية الله تعالى ووحدانيته في الخلق والأمر وسائر صفات الكمال يقع في المرتبة الأولى فهو بمثابة الجذر الرئيسي.

ثم يأتي في المرتبة الثانية توحيد الألوهية باعتبار هذا هو اللازم الأول لتوحيد الربوبية، فهو الرب الواحد الذي يجب أن يفرد وحده بالعبادة إذ لا يستحقها غيره.

ثم يأتي بعد ذلك ما يلزم عن حكمة الخالق، فمن لوازم صفة الحكمة أنه لم يخلق هذا الخلق عبثاً، وهذا يهدي العقول الحصيفة إلى أن الإنسان بخصائصه المتنوعة (العقل، والإرادة، والغرائز، والشهوات) في مجال مفتوح، له أن يفعل فيه الخير والشر، إنما خُلق

للابتلاء، والابتلاء يستلزم قانون الجزاء وإلا خلا من الحكمة وكان عبثاً.

وبما أن الحياة الدنيا هي الزمن المخصص لهذا الابتلاء بكل ظروفها وأحداثها؛ فلا بدَّ من حياة أخرى يكون فيها الجزاء الأمثل، وهنا يبرز لنا عنصر الإيمان باليوم الآخر.

أما ما يحدث في ظروف هذه الحياة الدنيا من جزاءات معجَّلة فالغرض منها العظة أو التذكير، أو التربية أو التطهير، ثم إن الابتلاء الأمثل يقتضي بيان مواده حتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره تجاه خالقه، لذلك اقتضت حاجة الإنسان أن يرسل الله إليه من يبين له مواد امتحانه في ظروف الحياة الدنيا، حتى لا يكون له عذر يعتذر به.

وهذا يفتح آفاق الفكر إلى قبول ركن الإيمان بالرسل.

ثم نلاحظ أن من تمام الحكمة أن يكون مع الرسل بيانات ثابتة في نصوص منزَّلة، تكون دستوراً للناس يعملون به ويهتدون بهديه ولو انتهت حياة الرسل، وهذا يفتح آفاق الفكر إلى قبول ركن الإيمان بالكتب، ويتساءل الفكر الإنساني: كيف يرسل الخالق الذي لا

تدركه الأبصار رسلاً من البشر؟ وكيف يتصل بهم؟

وهنا كان لا بد من بيان ظاهرة الوحي وحقيقتها، ببيان إمكانه، وبيان وساطة الرسل من الملائكة. وكان لا بدَّ أيضاً من التوثُّق من صدق من يدَّعي: أنه رسول الله، فاقتضى الأمر تأييد الرسل بالآيات الدالات على صدقهم. وهنا تبرز لنا ظاهرة المعجزات التي يؤيد الله بها رسله.

وترافق كل ذلك تفصيلات توضح أركان القاعدة الإيمانية، وعناصرها وأجزاءها، وكل ما لا بدَّ منه لاستكمال صورة هذه القاعدة، أو ما يحسن أن تستكمل به.

٦ ـ الغاية من خلق الإنسان في هذه الحياة:

إن الفاطر الحكيم جلّ وعلا قد اقتضت حكمته العالية أن يجعل الإنسان من فئة مخلوقاته المزوَّدة بصفات تؤهلها للامتحان والابتلاء الرباني في مجال هذه الحياة، وهذه الصفات هي:

أ ـ الإرادة التي لها جانب من الحرية كافٍ للابتلاء.

ب ـ العقل المزود بالاستعداد لفهم النهي والأمر، والتمييز بين الخير والشر، والنفع والضرّ والحقّ والباطل.

ج ـ القدرة الظاهرة على تنفيذ بعض الأعمال التي يريدها.

وإذْ منح الخالق الحكيم الإنسان هذه الصفات تشريفاً له وتكريماً، كان على هذا الإنسان أن يعترف لخالقه العظيم بوجوده، واتصافه بكل صفات الكمال، وتنزهه عن كل صفات النقصان، وكان عليه أن يحمده ويثني عليه بنعمه التي لا تحصى الظاهرة والباطنة، وكان عليه أن يشكره فيعبده ويطيعه في كل ما يأمر به وينهى عنه.

وحين نلاحظ حكمة الخالق جل وعلا يتَّضح لنا أن حكمته تعالى تقضي بأن لم يخلق الناس عبثاً، وإنما خلقهم لغاية، وحينما نبحث عن هذه الغاية ينكشف لنا أنَّ الغاية من خلق الناس مزوَّدين بالصفات التي تؤهلهم للامتحان إنما هو امتحانهم في ظروف هذه الحياة الدنيا، فخصائص العمل المصنوع تدل على الغاية من صنعته، وخصائص الكائن المخلوق تدل على الغاية من خلقه.

وهذا الذي نهتدي إليه بالتأمل الفكري قد بينه الله لنا في كتابه، فقال تعالى في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

وقال تعالى: في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول).

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

ولذلك فقد وضع الله هذا الإنسان في الظروف الملائمة للاختبار على أحسن وجه وأكمله، إذ قذفه إلى الحياة الدنيا حُرَّ الإرادة بين كفتي ميزان من العقل والشهوة، ودوافع الخير ونوازع الشر، وبواعث الرحمن ونزغات الشيطان، وجالبات السرور ومذيقات الألم. ثم قوّى عنده جانب الخير والفضيلة بالميل الفطري، ورجَّح لديه الطاعة بالترغيب والترهيب، فأرسل إليه الرسل، وأنزل معهم الكتب، ليكون على بينة من عناصر امتحانه.

ويتلخَّص المطلوب من الإنسان في هذا الامتحان بأنه مكلف أن يعبد ربه، والعبادة تشمل الإيمان والعمل والطاعة على قدر الاستطاعة، وفق أوامر الرب ونواهيه، وقد بين الله المطلوب من الإنسان في الامتحان الذي خلق له، فقال تعالى في سورة (الذرايات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

فالمطلوب من الإنسان أن يحققه بإرادته في الظروف التي وضع فيها موضع الامتحان هو أن يعبد الله حقاً، والعبادة الصحيحة إنما تتحقق بالإيمان، والاعتراف، والخضوع، والطاعة على قدر الاستطاعة.

وهنا لا بدَّ أن ندرك أن الامتحان يقتضي الجزاء، وإلا كان عبثاً لا معنى له، وحكمة الله العلي القدير تأبى هذا العبث.

فالجزاء أمر لازم لحكمة الابتلاء ضرورة أن الحكيم الذي قرر بحكمته أن يبتلي لا بد أن يكون قد رتَّب في خطته أن يجازي الممتحَنين بحسب أعمالهم، وقد بين الله لنا ذلك في كتابه، فقال تعالى في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

وقال سبحانه في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا

يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وحينما كلَّم الله موسى بالوادي المقدَّس طُوَى قال له كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

ولما كان الجزاء المرتب في الخطة أمراً غير واقع على الوجه الأتم في ظروف هذه الحياة الدنيا؛ كان لا بد من ظروف حياة أخرى يتم بها الجزاء الأمثل، بذلك تقضي حكمة الخالق الحكيم، وهذا التأمل النظري يفتح أمامنا أبواب التصور الصحيح لإدراك الآخرة والإيمان بها.

وفي الفصول التالية إن شاء الله تكون دراستنا لأركان العقيدة الإسلامية.

* * *

الفصل الأول

الإيمان بالله تعالى

وفيه تسع مقولات:

المقولة الأولى: وجود الخالق حقيقة ثابتة والشعور به أمرٌ فطري في الأنفس.

المقولة الثانية: العلم يوصل إلى الإيمان بالله ثم إلى الإسلام بكل عقائده ومبادئه.

المقولة الثالثة: دلائل وجود الخالق سبحانه منبثة في كلّ شيء.

المقولة الرابعة: أقوال علماء الكون والفلاسفة في الإيمان بوجود الخالق.

المقولة الخامسة: اختلاف الناس في ذات الخالق بعد الإيمان بوجوده.

المقولة السادسة: الإلحاد والملحدون.

المقولة السابعة: بعض المسالك النظرية التي تلزم العقل بالإيمان بوجود الخالق.

المقولة الثامنة: صفات الخالق جلّ وعلا.

المقولة التاسعة: توحيد الربوبيّة وتوحيد الإلهيّة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

المقولة الأولى

وجود الخالق حقيقة ثابتة
والشعور به أمر فطري في الأنفس

أول شعور يشرق في أعماق الإنسان إذا تأمل في نفسه وفي الكون من حوله شعورُه بوجود قوة كبرى مهيمنة على الكون، تمنحه التدبير والتنظيم، وتتصرف فيه بالحياة والموت، والبناء والفناء، والتغير والتطور، والحركة والسكون، وجميع أنواع التغيرات الحكيمة التي تجري فيه.

إن الإنسان ليشعر بهذه الحقيقة ويؤمن بها إيماناً عميقاً، سواء استطاع أن يقيم الدليل البرهاني على صدق هذا الشعور أو لم يستطع، فدليل الفطرة ودليل البداهة شاهد حق يسبق الشواهد النظرية وقد يكون أدق منها وأصدق.

وحسب الإنسان في إيمانه واعتقاده بشيء ما أن

يوافق شعوره الفطري وإحساسه الْبَدَهيّ النتائج النظرية التي يتوصل إليها الباحثون من علماء وفلاسفة، أو أن يتفق شعوره وإحساسه مع الشعور والإحساس الصادق للكثرة الكاثرة من المجموعة الإنسانية. بل ربما يقال: إن سلامة الفطرة وصفاء الإحساس الخفي من أهم الوسائل الأساسية في شعور الإنسان في أطوار حياته، وإذا قلنا: إن الشعور الفطري في الإنسان بوجود قوة كبرى مهيمنة على الكون خالقة عليمة حكيمة من الدلائل الصادقة على وجود الخالق؛ فلنا على ذلك أمثلة كثيرة من واقع حياة الإنسان في تكوينه الفطري، إذ يوافق شعوره الفطري ما هو كائن فعلاً، أو ما يجب أن يكون بشكل لا يقبل الزيادة عليه أو النقصان منه بأي مقدار قلَّ أو كثر، مهما تقدمت البحوث العلمية والكشوف التجريبية.

إنَّ كثيراً من علومنا ومعارفنا ليس لها دليل في أنفسنا غير شعورنا الفطري بها، ومهما تقدَّمت العلوم والمكتشفات فإنها لا تزيدنا عنها شيئاً غير ما توصلنا إليه بفطرتنا.

فمن أمثلة ذلك: انسياق الطفل حديث الولادة بفطرته الأولى إلى ارتضاع ثدي أمه دون أن يتعلَّم ذلك من معلم، ودون أن يدركه بدليل عقلي أو حسي ظاهر.

والأم تشعر بعاطفة الأمومة سواء علمت أن السر في ذلك حفظ الطفل بالرعاية والتربية حتى يصبح قادراً على الاستقلال بنفسه أم لم تعلم.

كما أننا جميعاً مسوقون بإحساس الفطرة والغريزة إلى مطالب عيشنا، ولو لم ندرك الغرض من وراء هذا الإحساس، وأننا نحس بالجوع فنأكل سواء علمنا أن الأكل وسيلة من وسائل حياتنا أمْ لم نعلم، ونحس بالبرد فنتخذ الوقاية منه سواء عرفنا أن البرد من عوامل الهدم في بناء جسدنا أمْ لم نعرف، ونحس بالشهوة للحموض مثلاً دون أن نعلم بأنها ضرورية لجسمنا لتحلل المواد الكلسية وغيرها من المعادن في الأطعمة، حتى تتمثل في أجسامنا تمثلاً صحيحاً، ونشعر بوجود روح فينا، أو سر حياتنا، فندافع عنها ونحرص على بقائها، دون أن نحس بها بإحدى حواسنا الظاهرة، وقد لا يستطيع الكثير من الناس أن يقيم البرهان على وجودها، وعلى الرغم من ذلك فهو يشعر بها ويعتقد بوجودها.

ثم أَلَسْنا نشعر في داخلنا بالعواطف والوجدانيات كالحب والبغض والرغبة والكراهية؟ فما الدليل على وجودها فينا وهي متغلغلة في داخلنا؟ هل نستطيع أن نقيم عليها دليلاً أكثر من أننا نشعر بها؟ وهي حق لا شك فيه.

إنّنا نشعر بالشهوة ونشعر بالألم، فهل نستطيع أن نثبت ذلك بأكثر من أننا نشعر به؟ إن الشعور بها دليل على وجودها، ولكن كيف هي موجودة؟ هنا نحاول أن نبحث.

هذه بعض أمثلة وهناك أمثلة أخر غيرها لا تكاد تستقصىٰ.

ومما لا شك فيه أن هذه الفطرة وهذه الإحساسات العميقة فينا لم توجد فينا عبثاً، بل هي فطرة صادقة موافقة للواقع الكوني، وموافقة لحاجاتنا، ومهما تقدم العلم فلن يستطيع الغض من أمر هذه الفطرة، ولن يستطيع إهمالها أو الاستعاضة عنها إلا قليلاً، ما لم تكن الفطرة في الإنسان شاذة مريضة، والمريض الشاذ يجب علاجه.

ومن هذه الإحساسات الفطرية الصادقة فينا إحساس الإنسان بوجود الخالق، وتلهفه دائماً لمعونته وإمداداته، وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير في نظامه وإتقانه وما فيه من إبداع وحياة وموت إلى قدرته وعلمه وحكمته سبحانه. إنه شعور فطري تشترك في الإحساس به جميع الخلائق المدركة، على اختلاف نزعاتها ومستويات ثقافاتها، في البيئات البدائية، وفي المدن المتحضرة، وفي منتديات المثقفين، وفي قاعات العلوم والفنون والمختبرات.

إنه شعور مشترك بين جميع الناس يقوم في نفس الطفل الصغير، والإنسان البدائي، والإنسان المتحضر، والجاهل والعالم، والباحث والفيلسوف، والعبقري، والخبير في المعمل، كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك أن الله حق.

إن القوة القابضة على ناصية كل شيء، العالمة بكل شيء، الحكيمة المريدة لا شك فيها، هذه هي صبغة الله في كل مخلوق مدرك، وفطرته التي فطر الناس عليها، وفي الإشارة إلى هذه الحقيقة عن الله يقول الله تعالى في القرآن الكريم حكاية عن الرسل كما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٠﴾﴾.

وإعلاناً عن هذه الفطرة القائمة في الأنفس المدركة قال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾.

إنها فطرة لا تنطمس إلا في نفس من بالغ في الانحراف من الناس بدافع غير أخلاقي، ليرضي شيئاً في نفسه، فغَشَّى على مرآة فطرته الصافية، وشدّ عصائب الجهل والعناد على حسّه المضيء.

وهكذا فقد تظلم مرآة الفطرة في الإنسان بدخان نار الشهوات وبعض الغرائز النفسية العاتية المستكبرة، أو بِسُحُب الشكوك المادية، فتختفي عنها بعض الحقائق الظاهرة في الكون.

وعند ذلك تدعو الضرورة إلى إقامة الأدلة النظرية، ليزال بها عن طريق العقل الظاهر ما غشّى على مرآة الفطرة بظلمات الشهوات والغرائز النفسية، والشكوك المادية، ونستطيع أن نسمّي هذه العوارض الطارئة على مرآة الفطرة (أمراض الحاسة الفطرية).

* * *

المقولة الثانية

العلم يوصل إلى الإيمان بالله ثم إلى الإسلام بكل عقائده ومبادئه

إذا تركنا الفطرة ودليلها كان البحث العلمي ـ بما فيه من استدلال نظري واختبار وتجربة في المادة وأسرارها وكوامنها ـ هو سبيلنا للتعرف على حقيقة وجود الخالق جلّ وعلا.

الحقيقة لا تخشى البحث:

إن البحث العلمي المتجرد عن الهوى والتعصب المذموم والعناد لا بد أن يصل بالباحث إلى الإيمان بالله تعالى، وبصفاته الجليلة، وإلى كل مبدأ قرّره الإسلام، وعلمنا به بطريق قاطع.

ولذا فإننا نرى أن الإسلام دفع الناس إلى العلم والمعرفة بإلزام وإلحاح، وقذف بهم إلى دقّ أبواب المعارف المغلقة بكل وسيلة مقبولة، وبكل جرأة وشجاعة

وتصميم، وحثّ كل فكر على البحث والتأمل والنظر للوصول إلى المعرفة الحقّ. ولم يجعل على العقول حجاباً ساتراً، لأنه لا يخشى على عقائده ومبادئه من أي بحث علمي سليم، ولأنه على يقين من أن البحث العلمي السليم والتأمل والنظر السديدَين البريئين من الهوى والتعصب الذميم لا بد أن توصل أصحابها إلى ذات النتائج التي قررها الإسلام ودعا إليها، ونادى بها في عقائده ومبادئه، فهو مطمئن من جهة أيِّ بحثٍ علمي ينشد الحقيقة، مهما كان نوعه، شريطة أن يكون منصفاً بعيداً عن الهوى والتعصب الذميم، وذلك وفق القاعدة المشهورة بين العلماء (إنَّ الحقيقة لا تخشى البحث).

الصداقة بين الإسلام والبحث العلمي:

وهذا ما يجعلنا نرى الصداقة تامة بين الإسلام والبحث العلمي المتجرّد المنصف، وأنه ليس بينهما أي تنافر أو اختلاف.

وحين نلاحظ في الظاهر نوعاً من التخالف بين بعض القضايا المقررة في علوم الإسلام وبعض القضايا الأخرى المقررة فيما توصل إليه البحث العلمي فذلك لا يعدو واحداً من أمور ثلاثة:

الأمر الأول: أن البحث العلمي لم يصل إلى مرحلة الحقيقة المقطوع بها في الموضوع الذي يخالف ما هو

مقرّر في علوم الإسلام، وعند ذلك نُسْكِت الدعوى الناطقة بأن هذا المخالف لما هو مقرر في الإسلام حقيقة علمية مقطوع بها. ونقول للبحث العلمي تابع بحثك لتصل إلى الحقيقة، وستجد نفسك بين يدي الحقيقة المقررة في الإسلام.

الأمر الثاني: أن يكون المنقول عن الدين الإسلامي ليس منقولاً نقلاً صحيحاً صادقاً وفق المنهج المعتبر علمياً في نقل النصوص.

الأمر الثالث: أن يكون قد وقع خطأ في تفسير النص الديني المقطوع به من قبل بعض المجتهدين، ومعلوم أن الحقائق الدينية الاعتقادية ليست ملزمة بالنتائج المخطئة التي يتوصل إليها ذوو الرأي والاجتهاد والتفسير حسب آرائهم واجتهاداتهم وتفسيراتهم غير اليقينية.

أمّا الحقائق المقطوع بها في الدين والنتائج التي يتوصل إليها العلم بطرقه اليقينية القاطعة فإن بينهما تمام التوافق، ولا بد أن يلتقيا على نقطة من الحقيقة واحدة، ذلك لأن الحق لا يتعدد قطعاً في الأمور الاعتقادية ولا في الكائنات الثابتة.

سعة صدر الإسلام للنقاش المنصف البريء:

ولما كانت عقيدة الإسلام ومبادئه في جانب الحقيقة

فإننا نرى الإسلام واسع الصدر لكل نقاش منصف بريء من الهوى والتعصب. يتقبّل أيَّ نقاش متجرد ينشد الحقيقة، كما يتقبل كلّ تأمل ونظر ومقارنة، ولذا: فقد طلب من المسلمين أن يكونوا في نقاشهم وجدالهم بالحق متحلّين بسعة الصدر ورحابة النقاش، وعلّمهم ما يلي:

أولاً: أن يبحثوا بتجرد ويقولوا للخصوم كما جاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول).

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾.

ثانياً: أن يجادلوا بالتي هي أحسن إذا ألجأهم الأمر إلى الجدال.

قال الله تعالى معلِّماً رسوله: كما جاء في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾.

وذم الجهلة الذين يجادلون بالباطل من غير علم، فقال تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾.

البحث العلمي يوصل إلى الإيمان:

والنتيجة الحتمية للبحث العلمي المنصف في ظاهرة الوجود الكوني أن يصل الباحثون إلى حقيقة الإيمان بالله تعالى وعظيم صفاته، وأن يشهدوا بذلك إذا كانوا متجرّدين منصفين. وهذا ما أعلنه القرآن الكريم في قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

ومتى وصلوا إلى هذا الإيمان وتحققوا من هذه المعرفة فلا بدَّ أن يكونوا أكثر الناس خشية لله تعالى، قال الله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

فالعلماء هم الذين يصلون ببحثهم وعلمهم إلى المعرفة الحقّ، ومع المعرفة الحقّ تكون بواعث الخشية.

ولذلك مجّد الإسلام العلماء والباحثين، ومن النصوص الكثيرة في ذلك قول الله تعالى في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقوله تعالى في سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول):

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ونهى عن اتباع ما لا علم للإنسان به، فقال الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

إن العَالِمَ المادي متى تجاوز في تفكيره حدود ظواهر المادة وصل حتماً إلى الإيمان.

ومتى سمح العالِم المادي الناظر في الطبيعة لنفسه أن تتجاوز حدود ظواهر المادة، وبدأ يتساءل عن تفسير لها وتعليل، وبدأ يفكر في غاياتها بتأمل وإمعان، وبدأ يبحث في النظام الجامع لها، وفي قوانينها الثابتة، فإنه لا بدَّ أن يصل حتماً إلى الإيمان بوجود الخالق جلَّ وعلا.

أما إذا حجز نفسه في حدود ظواهر المادة فقط، ومنع فكره من أن يجول في التفسير والتعليل والغاية، فإننا قد لا نرى في نفسه أثراً للتأملات الكبرى، ولكن نشهد شهادة حق أنه عطَّل في فكره زاوية بحث كبرى،

ورضي لنفسه بالجهل الكامل من هذه الناحية، معرضاً عن الحقيقة، مستهيناً بأمرها، مشغولاً بما يقدم للجسد مطالبه.

وهذا الفريق من العلماء الماديين الواقفين عند حدود المادة هم الذين عناهم القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

ولكننا نلاحظ أن الغالبية العظمى من العلماء بما فيهم الباحثون الماديون ما يفتأ الشوق للمعرفة فيهم - وهو أصل من أصول الفطرة الفكرية في الإنسان - يلحُّ عليهم بالبحث وتجاوز ظواهر المادة، ثم لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام حقيقة وجود الله تعالى مهما حاولوا التهرب منها.

ولذلك: ما نزل نطالع أقوال العلماء الكونيين وأقوال الفلاسفة الباحثين واعترافاتهم على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم الفكرية، فنلاحظ فيها اعترافاتهم الخاشعة بالخالق الواحد جلَّ وعلا.

إنها حقيقة وجود الله المنبثة دلائلها في كل شيء.

* * *

المقولة الثالثة

دلائل وجود الخالق سبحانه منبثة في كل شيء

لقد بثَّ الخالق دلائل وجوده في كل شيء من الكون، فكلَّما تأمل العقلاء في هذا الكون الكبير المتدفق حكمة وإبداعاً تجدَّد لهم في كل تأمل جديد برهان جديد يشير إلى الخالق العظيم.

فالساذج من الناس ينكشف له من الدلائل على وجود الخالق والبراهين على وحدانيته وعظمته دلائل تتناسب مع مستوى تفكيره وثقافته.

والذكيُّ يزيد في التأمل فيصل إلى الحقيقة نفسها، ولكن بدلائل أكثر وأدق وأعمق، والفيلسوف الباحث تضطره الحقيقة بعد البحث والتأمل أن يعلن وجود الخالق المبدع بمستوى من الأدلة أكثر عمقاً وأدق فلسفة وغوصاً إلى أعماق أسرار الأشياء.

والعالم التجريبي ينكشف له في كل تجربة صادقة دليل جديد على ارتباط المادة بسبب أَوَّلي فعال عليم مريد قادر وهو الخالق سبحانه.

والعبقري لا بد أن يصادف في مجال عبقريته مئات الأدلة التي تجعله يذعن في قرارة نفسه بوجود الخالق العظيم.

والفطري بفطرته الصافية ووجدانه السليم يتحسَّس ببساطة لا تعقيد فيها، فيشعر بأن لهذا الكون خالقاً كبيراً فيؤمن به.

فسبحان الخالق الذي جعل كل شيء في الكون يشير إلى وجوده وكمال صفاته، ولو أخذنا أفراد البشر منذ نشأة الإنسان حتى عصرنا هذا لوجدنا أنه ما من إنسان استطاع أن يعيش وهو عاقل مدرك منصف ثم يموت دون أن يعتقد بقوة مهيمنة على الكون تسيِّره وتدبِّر أمره، وإن تنازعته الشكوك والتساؤلات في فترة من حياته.

فكبار علماء الدنيا وفلاسفة الكون في عصور التاريخ على اختلافها يعتقدون بوجود الخالق سبحانه، وفي المقولة التالية طائفة من أقوالهم واعترافاتهم.

* * *

المقولة الرابعة

أقوال علماء الكون والفلاسفة في الإيمان بوجود الخالق

إليك بعض ما يؤنسك عن هذه الحقيقة التي عرضناها لك فيما سبق من أقوال العلماء والفلاسفة في العالم، لعلها تنفعك في المحاجَّة وإن لم تزدك إيماناً بربك.

إن أقوال علماء الكون وفلاسفته التي يعلنون فيها وجود الكائن الأعظم والمدبِّر الحكيم (الله) كثيرة وهنا ننقل إليك طائفة منها:

جاء في كتاب «الله يتجلَّى في عصر العلم» ثلاثون مقالاً لثلاثين من كبار العلماء الأمريكيين في الاختصاصات العلمية المختلفة من علوم الكون السائدة في العصر الحديث.

وقد أثبت هؤلاء العلماء في مقالاتهم هذه وجود الله جل

وعلا عن طريق ما وعوه من الأدلة الكثيرة المنبثَّة في مجالات اختصاصاتهم العلمية.

وهو كتاب حسن في بابه لأنه يُطْلِع القارىء على نوع من الأدلة الكونية التي تفرض سلطانها على العلماء. من خلال ملاحظاتهم وتجاربهم واختباراتهم العلمية، فتقول لهم كما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١٠).

فيقولون بتجرد وخشوع:

آمنا بالله ربنا العليم الحكيم القدوس خالق كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

كما يجد القارىء في الكتاب الرد الكافي على مروِّجي الإلحاد الذين يزعمون أن العلوم تبعد عن الإيمان بالله.

إن هذه الدعوى خرافة يتلمَّظ بها مفترون دسَّاسون مغرضون، فالعلم مؤمن ويدعو إلى الإيمان بالله، ولكن الجاحد هو الهوى والغرض الجانح، وهما اللذان يدعوان إلى الإلحاد والجهل وطمس البصائر عن الحق، فراراً من ملاحظة عدل الله فيما يأمر به من خير وما ينهى عنه من شر.

وإليك بعض مقتطفات من هذه المقالات جمعتها لك مع شيء من التصرف:

أ ـ جاء في المقالة الأولى من الكتاب تحت عنوان (نشأة العالَم هل هو مصادفة أو قصد؟) كتبها (فرانك ألن) عالِم الطبيعة البيولوجية:

إذا سلَّمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسِّر وجوده ونشأته؟ هناك احتمالات أربعة للإجابة على هذا السؤال:

١ ـ فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهذا يتعارض مع ما سلَّمنا به من أنه موجود.

٢ ـ وإمَّا أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم وهذا مرفوض بداهة.

٣ ـ وإمَّا أن يكون هذا الكون أزلي الوجود ليس لنشأته بداية، وهذا الاحتمال يساوي ما يقوله المؤمنون بالله بالنسبة إلى أزليّة الخالق، لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذن حدث من الأحداث، ولا يمكن إحالة وجود هذا الحدث المنظم البديع إلى المصادفة عقلاً، ولذلك فهذا الاحتمال باطل أيضاً.

٤ ـ وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلي أبدعه، وهو الاحتمال الذي تقبله العقول دون اعتراض، وليس يرد على إثبات هذا الاحتمال ما يبطله عقلاً فوجب الاعتماد عليه.

ب ـ جاء في المقالة الثانية من الكتاب تحت عنوان (اختبار شامل) كتبها (روبرت موريس بيدج) عالِم الطبيعة، أول من اكتشف الرادار في العالم سنة ١٩٣٤ م:

وجدنا أناساً موهوبين يحدثوننا عن الغيب يقولون: إنهم رسل الله وما حدَّثونا به قسمان:

١ ـ قسم يقولون فيه: إنّ لهذا الكون خالقاً واحداً يجب الإيمان به.

٢ ـ وقسم يخبروننا فيه عن بعض أمور الغيب التي ستحدث.

أما القسم الثاني فقد وقع كما أخبرونا به بعد مئات السنين، وأيدت الأيام وأثبت التاريخ صدق هذه النبوءات جميعها، وهي من الأشياء التي عجزت العلوم حتى اليوم عن أن تجد لها تفسيراً، فدلَّ ذلك على صحّة رسالتهم وصدق أخبارهم، ووجب أن نصدقهم فيما أخبرونا به عن الله تعالى وصفاته، وهو القسم الأول، لأن عقولنا لا تمنع منه، بل عندنا من الشعور الداخلي ما يثبته.

ثم قال: «إن الإيمان بوجود الله من الأمور الخاصَّة

التي تنبت في شعور الإنسان وضميره وتنمو في دائرة خبرته الشخصية».

ج ـ جاء في المقالة الثالثة من الكتاب تحت عنوان (درس من شجرة الورد) كتبها (ماريت ستانلي كونجدن) عالِم طبيعي وفيلسوف وعضو الجمعية الأمريكية الطبيعية، جاء فيها ما خلاصته:

١ ـ إنَّ كثيراً من الأمور التي نسلِّم بها إنَّما نعتمد فيها على الاستدلال المنطقي.

ومن أمثلة ذلك:

كثير من استنتاجاتنا اليومية في حياتنا العادية، العلوم الفلكية التي ليس بيننا وبينها اتصال مادي مباشر، بحوث الذرة واستخدام قوانين الكتلة والطاقة في استنباط صفات الذرة وتركيبها وخواصها، مع العلم بأن العلماء لم يروا الذرة حتى الآن بطريقة مباشرة، وقد أيدت القنبلة الذرية الأولى ما وصل إليه العلماء من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها.

ومن أمثلة ذلك: وجود الله فإننا نستطيع أن نصل إلى معرفته عن طريق الاستلال المنطقي الذي يقوم على تفسير النتائج بنظائرها أو مثيلاتها.

٢ ـ برغم أن العلوم لا تؤيد وجود عالَم غير مادي

تأييداً كاملاً، لأن الدائرة التي تعمل فيها تقع في حدود المادة، فإنها لا تستطيع أن تنفي بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادية وراء العالم المادي.

٣ ـ نستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الإنسان وذكائه في عالم يفيض بالأمور العقلية أن نصل إلى وجوب وجود قوة مسيطرة مدبرة تسيِّر هذا الكون وتدبر أمره. وختم مقاله بما يلي:

«إنَّ جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته».

ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته».

د ـ جاء في المقالة الرابعة من الكتاب تحت عنوان (النتيجة الحتمية) كتبها (جون كليفلاند كوثران) من علماء الكيمياء والرياضيات، رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث.

بدأ مقالته بكلمة (لورد كليفن) وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم «إذا فكرت تفكيراً عميقاً فإنَّ العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله» ثم شرع في مقالته وهي تتلخص بما يلي:

١ ـ تنقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ العالَم المادي.

٢ ـ العالَم الفكري.

٣ ـ العالَم الروحي.

٢ ـ إنَّ التطورات الهامة التي تمَّت في جميع العلوم الطبيعية خلال السنين المئة الأخيرة بما في ذلك الكيمياء قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية في دراسة المادة والطاقة.

وعند استخدام هذه الطريقة تُبذل كل الجهود للتخلُّص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة التي تجعل النتيجة التي نصل إليها راجعة إلى محض المصادفة.

٣ ـ أسهب في الأمثلة العلمية عن طريق الكيمياء التي تثبت أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة مهما صغر لا يمكن أن يكون سلوكاً عشوائياً، ناجماً عن المصادفة، بل كل شيء يسير وفق قانون يهيمن على سلوكه.

٤ ـ ثم قال: هل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد

أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟! أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها؟

لا شك أن الجواب سوف يكون سلبياً. وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكنَّ بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبديَّة، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزليَّة إذ إنَّ لها بداية.

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أنَّ بداية المادة لم تكن بطيئة ولا تدريجية بل وجدت بصورة فجائية.

وتستطيع العلوم أن تحدِّد لنا الوقت الذي نشأت فيه المواد، وعلى ذلك فإنَّ هذا العالَم المادي لا بدَّ أن يكون مخلوقاً، وهو منذ أن خُلِقَ يخضع لقوانين وسنن كونية محدَّدة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

فإذا كان هذا العالَم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدِّد القوانين التي يخضع لها، فلا بدَّ أن يكون الخلق قد تمَّ بقدرة كائن غير ماديّ متصف بالعلم والحكمة.

هـ ـ جاء في المقالة الخامسة من الكتاب تحت

عنوان (فلننظر إلى الحقائق دون ميل أو تحيُّز) كتبها (أدوارد لوثر كيسيل) أستاذ أحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو.

١ ـ أضاف البحث العلمي خلال السنوات الأخيرة أدلة جديدة على وجود الله زيادة على الأدلة الفلسفية التقليدية.

٢ ـ لقد عمَّت بلادنا في السنوات الأخيرة موجة من العودة إلى الدين، ولم تتخط هذه الموجة معاهد العلم لدينا.

ولا شكَّ أنَّ الكشوف العلمية الحديثة التي تشير إلى ضرورة وجود إله لهذا الكون قد لعبت دوراً كبيراً في هذه العودة إلى رحاب الله والاتجاه إليه.

٣ ـ يرى البعض أنَّ الاعتقاد في أزليَّة هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد في وجود إله أزليّ.

ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ خمسة بلايين سنة. والواقع أن الكون لا يزال في عملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته.

٤ ـ لو أن المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيّز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرَّروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم، فإنهم سوف يسلِّمون دون شك بوجود الله، وهذا هو الحلُّ الوحيد الذي يفسِّر الحقائق. فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله.

و ـ جاء في المقالة السادسة من الكتاب تحت عنوان (استخدام الأسلوب العلمي) كتبها (وولتر أوسكار لندبرج) عالم الفسيولوجيا والكيمياء وعميد معهد هورمل سنة ١٩١٩ م.

١ ـ أرجع هذا العالم في مقاله فشل بعض العلماء في فهمهم وقبولهم لما تدل عليه المبادىء الأسياسية التي تقوم عليها الطريقة العلمية من وجود الله والإيمان به إلى أسباب لا صلة لها بالبحث العلمي، وخصَّ بالذكر منها سببين اثنين:

الأول: ما تتَّبعه بعض الجماعات أو المنظمات الإلحادية أو الدولة من سياسة معينة ترمي إلى شيوع الإلحاد ومحاربة الإيمان بالله، بسبب تعارض عقيدة الإيمان بالله مع صالح هذه الجماعة أو مبادئها.

الثاني: المعتقدات الفاسدة التي تجعل الناس منذ الطفولة يعتقدون بآلهة على صورة الإنسان، وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية، فإن تلك الصورة التي تعلّموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير، أو مع منطق مقبول، وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة (ينظر الكاتب من خلال الديانة المسيحية الشائعة المحرَّفة) وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية.

ومن ثم فلا يحبّون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات التي تدور حول وجود الله.

٢ ـ وبعد أن نبه هذا العالِم في مقاله على ما سبق؛ وجَّه إلى الاعتماد في الإيمان بالله على أساس روحاني، وأوضح أن الإيمان بالله مصدر لسعادة لا ينضب معينها في حياة كثير من البشر.

٣ ـ ثم قال: «أما المشتغلون بالعلوم الذين يرجون الله فلديهم متعة كبرى يحصلون عليها كلَّما وصلوا إلى كشف جديد في ميدان من الميادين، إذ إنَّ كل كشف جديد يدعم إيمانهم بالله ويزيد من إدراكهم وإبصارهم لأيادي الله في هذا الكون».

ز ـ جاء في المقالة السابعة من الكتاب تحت عنوان (الأدلة الطبيعيَّة على وجود الله) كتبها (بول كليرانس ابرسولد) أستاذ الطبيعة الحيوية ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل أوج ريدج، وعضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعة النووية:

١ ـ بدأ هذا العالم مقاله بكلمة للفيلسوف الإنجليزي (فرانس بيكون) منذ أكثر من ثلاثة قرون:

«إنَّ قليلاً من الفلسفة يقرِّب الإنسان من الإلحاد أمَّا التعمُّق في الفلسفة فيرده إلى الدِّين» ثم أيَّد كلمة هذا الفيلسوف بالشرح.

٢ ـ استدل على وجود الله تعالى بدليل اتفاق الناس في الشعور المشترك بوجوده فقال:

«وقد لمس الناس عامة ـ سواء بطريقة فلسفية عقلية أو روحانية ـ أن هناك قوة فكرية هائلة ونظاماً معجزاً في هذا الكون يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية التي تظهر أحياناً بين الأشياء غير الحيَّة التي تتحرك أو تسير على غير هدى، ولا شك أن اتجاه الإنسان وتطلّعَهُ إلى عقل أكبر من عقله وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع لكي يستعين به على تفسير هذا

الكون يعد في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر، وتدبير أعظم، هي قوة الله وتدبيره.

٣ ـ ثم قال: وبرغم أننا نعجز عن إداركه إدراكاً كليًّاً أو وصفه وصفاً مادياً، فهناك ما لا يحصى من الأدلة المادية على وجوده تعالى، وتدلّ أياديه في خلقه على أنّه العليم الذي لا نهاية لعلمه، الحكيم الذي لا حدود لحكمته، القويُّ إلى أقصى حدود القوة.

ح ـ جاء في المقالة السادسة عشرة تحت عنوان (منطق الإيمان) كتبها (جورج هربرت بلونث) أستاذ الفيزياء التطبيقية، وكبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا قال:

١ ـ إنني أومن بالله، وأكثر من ذلك إنني أَكِلُ إليه أمري، ففكرة الألوهية بالنسبة إليَّ ليست مجرد قضية فلسفية، بل إنَّ لها في نفسي قيمتها العلمية العظمى، وإيماني بالله جزء من صميم حياتي اليومية.

٢ ـ ثم بعد أن قرر مبدأ الأمور الْبَدَهِيَّة التي نقبل بها قبول تسليم وإيمان، قال: وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله، فوجوده تعالى أمر بَدَهيّ من الوجهة الفلسفية، والاستدلال بالأشياء على وجود الله. كما في

الإثباتات الهندسية لا يرمي إلى إثبات الْبَدَهيَّات ولكنه يبدأ بها، فإذا كان هناك اتفاق بين هذه الْبَدَهيَّة وبين ما نشاهده من حقائق هذا الكون ونظامه فإن ذلك يعد في ذاته دليلاً على صحة الْبَدَهيَّة التي اخترناها.

٣ ـ ثم قسم الأدلة إلى أنواع فقال:

والأدلة أنواع منها: الأدلَّة الكونية، ومنها الأدلة التي تقوم على إدراك الحكمة، ثم الأدلة التي تكشف عنها الدراسات الإنسانية.

فالأدلة الكونية: تقوم على أساس أن الكون متغيّر، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن يكون أبديًّاً، ولا بدَّ من البحث عن حقيقة أبديَّة عُلْيا.

أما الأدلة التي تُبنى على إدراك الحكمة: فتقوم على أساس أنَّ هناك غرضاً معيَّناً، أو غاية وراء هذا الكون، ولا بد لذلك من حكيم أو مدبر.

وتكْمُن الأدلة الإنسانية وراء طبيعة الإنسان الخلقية فالشعور الإنساني في نفوس البشر إنما هو اتجاه إلى مشرع أعظم.

٤ ـ ناقش وضع الملحدين فقال:

«ويلاحظ أن للملحدين منطقهم ولكنّه منطق سلبي،

فهم يقولون: إن وجود الله يستدل عليه بشواهد معينة وليس ببراهين قاطعة، وهذا من وجهة نظرهم يعني عدم وجوده تعالى، إنهم يردُّون على الأدلة الكونية بقولهم: إن المادة والطاقة يتحول كل منهما إلى الآخر بحيث يمكن أن يكون الكون أزليّاً».

كما أنهم ينكرون النظام في الكون ويرونه مجرد وهم:

وهكذا ينكرون الشعور النفسي بالعدالة والاتجاه نحو موجِّه أعظم.

ومع ذلك لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم وجود الله، ومن منطقهم أن الأدلة المقدمة لإثبات وجود الله لا تعتبر كافية من وجهة نظرهم.

وهناك فئة أخرى من الملحدين لا يعترفون بإله لهذا الكون لأنهم لا يرونه، ولكنهم لا ينفون وجود إله في كون آخر غير هذا الكون، ولا شكَّ أنَّ هذا موقف مائع متضارب لا يستند إلى أساس سليم.

فإذا قارنّا بين الشواهد التي يستدل بها المؤمنون على وجود الله، وتلك التي يستند إليها الملحدون في إنكار ذاته العليَّة، لاتَّضَحَ لنا أن وجهة نظر الملحد تحتاج إلى تسليم أكثر مما تحتاج إليه وجهة نظر

المؤمن، وبعبارة أخرى نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة، أما الملحد فيقيم إلحاده على العَمَى.

وأنا مقتنع أن الإيمان يقوم على العقل، وأن العقل يدعو إلى الإيمان، وإذا كان الإنسان يعجز أحياناً عن مشاهدة الأدلة فقد يكون ذلك راجعاً إلى عدم قدرته على أن يفتح عينيه.

ط ـ وهكذا تتسلسل مقالات هؤلاء العلماء الثلاثين من كبار العلماء الماديين المنصفين على هذا الأسلوب العلمي، الذي يقررون فيه حقيقة وجود الله تعالى، وهم يعلنون خشوعهم وخضوعهم بين يدي عظمته وقدرته وحكمته جلّ جلاله، مقتبسين من أدلة الكون التي لا تحصى ما يقنعهم في إيمانهم بالله تعالى.

وقد عرض بقية أصحاب المقالات الأخرى المثبتة في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) أدلَّتهم على وجود الخالق، كلٌّ ضمن مجال اختصاصه العلمي، متعمدين فيها على الأسس التالية:

١ ـ الكون منظم بأبدع نظام وأدقه وهو موافق في نظامه للحكمة بأرقى ما يمكن أن تكون، سواء في قوانينه العامة أم في شذوذاته.

٢ ـ لا يمكن أن يقبل العقل إحالة هذا النظام

البديع إلى المصادفة، فوجب أن يكون منظماً بإرادة منظِّم ذي قوة لا نهاية لها، وحكمة لا يوجد أحكم منها، وعلم واسع محيط.

٣ ـ أنَّ العلوم الإنسانية تؤيد أن لهذا الكون بداية، وأنه قد بدأ بشكل مفاجىء، وكل ما له بداية فلا بد أن يكون له مبدىء خالق، لأَنه لا يمكن أن يخلق نفسه بنفسه.

٤ ـ الخبرة الشخصية لكل إنسان تدله على وجود الخالق.

٥ ـ لا يمكن أن تكون فكرة وجود الله خاطئة، وهي الفكرة التي يتفق على الشعور بها الناس على اختلافهم.

٦ ـ لا يوجد دليل واحد للمنكرين ولكن لكل مثبت أدلة كثيرة من خلال ملاحظاته الخاصة، مهما يكن مستوى ثقافته ومدى ذكائه.

وبعد أن عرضنا أقوال جمهرة كبار العلماء الماديين الذين عاصروا النهضة العلمية الحديثة، ورافقوا تطور العلم إلى أحدث مكتشفاته ومنجزاته، وهناك آخرون كثيرون منبثون في مختلف المدن الكبرى ومراكز الحضارة والعلم الحديث، نقدم إليك نماذج من أقوال بعض العلماء والفلاسفة الكونيين، ممن لهم شهرة كبرى في تاريخ العلوم الكونية، والفلسفة الإنسانية المنطقية.

أ ـ من أقوال (تشاد والسن):

«إنَّ ما يطلب إلى أي إنسان سواء أكان مؤمناً أم ملحداً هو أن يبيِّن لنا كيف تستطيع المصادفة أن تخلق هذا الكون».

ب ـ من أقوال العالم الطبيعي والكاتب اللامع (أولفروندل):

«كلَّما تقدمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف، فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله».

ج ـ من أقوال العلامة (ألبرت آينشتين) صاحب النظرية النسبية ـ وهو حجة في الرياضيات وفي الطبيعيات:

«إنَّ أصحاب العبقريات الدينية في جميع العصور قد عُرفوا بهذا النوع من الشعور الديني الذي لا ينتمي إلى نِحْلة، ولا يتمثل الله في أمثلة بشرية».

«إنني لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هي أن يوقظا هذا الشعور وأن يستبقياه حيّاً في الذين تهيأوا له»[1].

---

(١) نقلاً من كتاب (الله) لعباس محمود العقاد

د ـ من أقوال (سير أرثر أدنجتون) من أكبر العلماء الرياضيين في العالم: «إن تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث، وإن الكون أحرى أن يفسر بالنسب الرياضية في عقل عاقل، ولكن الإنسان هو سر الكون الأكبر، وهو الذي يدرك هذه النسب، ويدرك ما بين عقله وعقل الكون من علاقة وثيقة»[1].

هـ ـ قال (هرشل) وهو من فلاسفة القرن الثامن عشر «إنه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة، وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضة يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم، إعلاءً لكلمة الخالق»[2].

و ـ وانظر إلى ما دُوِّن من آراء (لسقراط) عن تلميذه (أفلاطون) من فلاسفة اليونان القدماء «هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو الذي لم يترك فيه شيء للمصادفة، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية،

---

(١) نقلاً من كتاب (الله) لعباس محمود العقاد.

(٢) هذا القول وما جاء بعده منقولة من كتاب (عقيدة المسلم) للشيخ محمد الغزالي.

وتلك الغاية متجهة إلى غاية أعلى منها، وهكذا حتّى يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة».

من أين نشأ هذا النظام الكامل في تفرعاته؟ المحفوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه، ليس من الممكن أن يحمل ذلك على المصادفة.

فلو أمكننا أن نقول: إنه نشأ من تلقاء نفسه لصحَّ لنا أن نقول: إن ألواح (بوليكلت وزونكريس) حدثت من تلقاء نفسها.

وإذا ما نظرنا إلى أن العناصر التي تحتوي عليها الكائنات كثيرة إلى درجة لا يمكن أن يحصرها العقل؛ كان من المحال أن نحمل وجود ذلك كله على المصادفة؛ فلا بد إذن من وجود عقل أعلى.. وهو الصانع الوحيد لأن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع، الذي ينفذ حكمه كنفوذ الفكر في الحال بدون أي خطأ وهو حاضر غالب ـ أي عالم قادر ـ ومع هذا فمن المستحيل إدراكه بالحواس، فهو كالشمس التي تمس جميع الأبصار لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها[١].

ز ـ وقد شرح (لابلاس) دليل الحركة الكونية وأبان

---

(١) من تاريخ التصوف للأستاذ (محمد علي عيني بك).

قوة هذا الدليل في حسم الشبهات التي يثيرها الجاحدون فقال:

«أمَّا القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية وكثافتها، وثبتت أقطار مداراتها، ونظمت حركاتها، بقوانين بسيطة ولكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس، والتوابع حول السيارات، بأدق حساب، بحيث إن هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعروه خلل».

هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه والذي يضمن استمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يعدُّ ولا يحصى من المخاطر المحتملة، لا يمكن أن يحمل على المصادفات في نظر (لابلاس) إلا باحتمال واحد من أربعة تريوليونات، وما أدراك ما أربعة تريوليونات؟ إنه عدد من كلمتين، ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصي إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلاً ونهاراً، على أن يعد في كل دقيقة ١٥٠ عدداً.

ح ـ وقال (سبنسر) ـ وقد عُرف عنه أنه غير متدين ـ: «إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك، وأن الأديان كانت أول من قَبِلَ هذه الحقيقة العلويَّة ولَقَّنَها».

ط ـ كتب (كميل فلامريون) في كتاب (الله في الطبيعة): «إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات فإن الله يتجلّى لنا كروح دائم موجود في كل شيء.

ليس هو سلطاناً يحكم من فوق السماوات، بل نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات، ليس مقيماً في جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة، بل إن الفضاء اللاّنهائي مملوء به، فهو موجود مستقر في كل نقطة من الفضاء وكل لحظة من الزمان، أو بتعبير أصح: هو قيُّوم لا نهائي، منَّزه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعاقب.

ليس كلامي هذا من جملة عقائد ما وراء الطبيعة المشكوك في صحتها، بل من النتائج القاطعة التي استُنْبِطَتْ من القواعد الثابتة للعلم، كنسبية الحركة وقِدَمِ القوانين.

إن النظام العام الحاكم في الطبيعة وآثار الحكمة المشهودة في كل شيء المنتشرة كنور الفجر وضياء الشفق في الهيئة العامة ولا سيَّما الوحدة التي تتجلّى في قانون التطوُّر الدائم ـ تدلُّ على أن القدرة الإلهية المطلقة هي الحوافظ المستترة للكون، هي النظام الحقيقي، هي المصدر الأصلي لكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها».

وكميل فلامريون فيلسوف ينكر اليهودية والنصرانية ولا يعرف الإسلام، ولكنَّه يعرف الله الواحد من إدمانه النظر في العلوم والأكوان، وأمثاله كثيرون.

ي ـ نشرت جريدة (المصري) القاهرية تلغرافاً أذاعته وكالة (رويتر) على العالم كله، جاء فيه: نيوريوك ـ ر ـ استفتت مجلة (كوليرز) المعروفة عدداً كبيراً من علماء الذرة والفلك وعلم الأحياء (البيولوجيا) والرياضة.

فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حدَّ له.

ويقول الدكتور (راين) «إنه ثبت من أبحاثه في المعامل أن في الجسم البشري روحاً أوجسماً غير منظور».

وقال عالم آخر «إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم ـ وهو ما تسميه الأديان السماوية الله ـ هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود.

* * *

المقولة الخامسة

اختلاف الناس في ذات الخالق بعد الإيمان بوجوده

وبعد أن عرفنا أن العقلاء المنصفين كلهم قد استووا في الإشارة إلى خالق مدبّر، وفي الإيمان بذي قدرة عظيم مهيمن، نلاحظ أنهم قد اختلفت مداركهم في تصور ذاته وتحديد صفاته.

فمنهم من استطاع أن يفهم أنه لا بد أن يكون مجرداً عن مشابهة كل شيء مادي أو يسري في المادة، أو تتصف به المادة، وأن يكون واجب الوجود، قائماً بذاته، لا إله إلا هو، لا يحتاج إلى مكان ولا يجري على ذاته زمان.

وهذه الحقيقة عن ذات الخالق هي الحقيقة التي جاءت الديانات السماوية لتروي بها غلّة كلِّ عالم باحث مفكر، ولتُطمئِن بها كل ذي فطرة صافية طاهرة سليمة،

وكل ذي عقل نافذ وقّاد، ولتصحح بها تصوّرات المجسِّمين الماديين، والمشركين الذين تنازعتهم الأوهام والتقاليد واستحوذت عليهم الشياطين، فشوَّهت صفاء فطرتهم، ولتحرر بها العقول البشرية من قيود المحسَّات، وتنطلق بها إلى آفاق التجريد العقلي، حتى يكون الإنسان أهلاً لما كرمه الخالق به إذْ منحه هذا العقل الذي يستطيع أن يدرك به وجود الخالق، وتنزهه عن مشابهة الحوادث، واتصافه بكل صفة من صفات الكمال.

وكان من هؤلاء الناس الذين آمنوا بوجود الخالق صنف تخيَّل ذات الخالق بالمادة، أو بما يشابه الأجساد المادية، أو بالقوى السارية في ذرات المادة بحسب قصر مداركه وتقيده بواقعه الذي يحسه في نفسه، أو في الكون من حوله، ولو أن هذا الصنف أصغَى بتفهم وتعقل للمنطق الجليّ الواضح، الذي نزل به الوحي على الرسل لم يقع بكل هذه التخيلات الباطلة التي يرفضها العقل بقليل من التأمل والنظر المتجردين المنصفين.

* * *

المقولة السادسة

الإلحاد والملحدون

ثم لا نجد الإلحاد إلا عند مغفَّلين مضلَّلين، أو مقلّدين متعصبين، أو مجرمين شهوانيين، أو مستكبرين مغرورين بالنزر اليسير الذي تعلَّموه من ظواهر الكون، فظنوا أنفسهم عرفوا كثيراً وجهلوا أنهم ما غمسوا بعد أكفهم في شاطىء بحر صغير من بحور علم الكون.

وذلك أنه قد تطغى على الإنسان شهواته وملاذه وأنانيته، فيحاول أن يتهرب من بعض الحقائق التي يشعر بها في قرارة نفسه، إرضاء لغرائزه وشهواته التي أخذت صبغة الانحراف والشذوذ، أو إرضاء لأنانيته في كِبْره واستعلائه وحبّه للسيطرة والإجرام.

ويصح لنا إذا أمعنَّا النظر أن نقول: إن الإلحاد بالله وإنكار وجوده بعد وضوح الدلائل من خلال تأمل

الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله ليس إلا تهرباً من الفضيلة والحق والخير والجمال، لتزيين أعمال الرذيلة والظلم والقبح وقلب الحقائق، إرضاء للنزوات والشهوات الجانحة الجامحة.

هل يستطيع أذكى وأعلم ملحد في الدنيا أن يأتينا بدليل واحد مقنع يدل على عدم وجود الخالق سبحانه؟ إن الملحدين مهما اجتمعوا لذلك فلن يستطيعوا، ما يضر الملحد لو عقل وأنصف ـ على فرض أنه لم تقم لديه الدلائل القاطعة على وجود الخالق بحدٍّ زعمه الفاسد ـ أن يؤمن بقوة ظنية لا يوجد ما يعارضها لا في الظن ولا في الوهم، فضلاً عن اليقين، وهذه القوة إذا تمَّ الإيمان بها تجعل منه ومن الناس جميعاً سعداء فضلاء، يعيشون عمرهم عيش الرفاهية والنعيم والطمأنينة النفسية والْمَحَبّة للخير، بينما لا توجد قوة أخرى في الدنيا تستطيع أن تقف في وجه غرائز الإنسان الشاذة المجرمة وأنانيته الظالمة المستكبرة.

أليس يقوم في ظن الملحدين احتمال صدق دعوة الرسل الذين يكذبونهم، وماذا ستكون حجتهم بين يدي الله إذا قال لهم يوم القيامة كذَّبتم رسلي، وأعرضتم عن البراهين التي بثثتها في الوجود الدالة على وجودي، والدالة على عدلي، فحقّ عليكم عقابي؟.

بمثل هذا النوع من الاستدلال ناقش المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه فرعون ومن معه، قال الله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

إن الملحد ليلحد بالله الحق ثم تراه يجري وراء أوهام تافهة لا حقيقة لها في الواقع، على توهُّم أن لديها بعض اللذائذ والشهوات النفسية، أو بعض الإصلاح الفردي أو الاجتماعي.

وفيما كتبه (أندرو كونواي إيفي) من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية من سنة ١٩٢٥ م إلى ١٩٤٦ م تحت عنوان (وجود الله حقيقة مطلقة) يقول:

«ويظهر أن الملحدين أو المنكرين بما لديهم من الشك لديهم بقعة عمياء أو بقعة مخدرة داخل عقولهم نمنعهم من تصور أن كل هذه العوالم سواء ما كان منها ميتاً أم حياً تصير لا معنى لها بدون الاعتقاد بوجود الله، وكما قال (آينشتين):

«إن الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيساً فحسب؛ ولكنه غير مؤهل للحياة».

ما هو شعور أكبر ملحد في الدنيا إذا تراكبت عليه الهموم والأحزان والمصائب وصدمته المخاطر من كل جهة، فلم يجد سبباً مادياً ينقذه؟ أفلا تتيقظ في أشد الحالات فطرته الأولى؟ فينادي: أيتها القوة المهيمنة على الكون: أسعفيني؟.

ماذا كان قول فرعون حين أدركه الغرق؟

إنه قال: آمنت بربِّ موسى وهارون. آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل.

إن تجربة إلقاء الملحدين في المخاطر والمآزق التي لا يجدون لدفعها سبباً مادياً، من أعظم التجارب التي تكشف عن فطرتهم الأولى السليمة الصافية والتي دخل إليها فيما بعد دخيل الفساد والشذوذ والإجرام، منذ شذُّوا وجنحوا عن الحق بشهواتهم وأنانيّاتهم.

إن هذه التجربة لتكشف عن فطرتهم، فيعلنون من حيث يشعرون أو لا يشعرون أن الله وراء المادة هو الواحد العليم القادر المريد المتصرف بكل شيء.

إنهم ينادون الله بعد إلحاد، ويلتمسون إنقاذه وعونه بعد كفر، ثم إن الله تعالى ـ يدُلُّهم على وجوده وقدرته واستجابته لدعوة المضطر إذا دعاه ـ فينقذهم وينجِّيهم، حتى إذا وصلوا إلى شاطىء السلامة ووضعوا أقدامهم على البر الآمن في نظرهم إذا هم يكفرون ويعودون إلى سيرته الأولى.

تلك هي نفوسهم المجرمة التي لم تلحد بالله لأنها لم تجد الدليل على وجوده، ولكنها ألحدت به لتُرضي استكبارها وشهواتها، فهي لا تذعن إلى الله إلا في الشدائد والمآزق، فإذا أنعم عليها وأنجاها كفرت بأنعمه.

وكذلك صوّر الله حال الكافرين في قوله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا

تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ
فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ
عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ
دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ
ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ
ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

* * *

المقولة السابعة

بعض المسالك النظرية التي تلزم العقل بالإيمان بوجود الخالق

ولئن كان وجود الخالق من الأمور البدهية المركوزة في فطرة الإنسان منذ نشأته الأولى، منذ بدأ يدرك نفسه والكون من حوله كما سبق بيان ذلك.

لكنه لا بد لنا من أن نسوق البراهين النظرية لعلَّها تستخدم وسيلة للتعرف على صدق هذا الإحساس الفطري، ولإزالة ما يمكن أن يعرض على النفس من شكوك تأثرت بها من واقع البيئة المادية التي وجد الإنسان فيها، ولإزالة الغشاوات التي تتعرض لها مرآة النفس من ظلمات الشهوات والغرائز المنحرفة التي دبَّ إليها الشذوذ، فأصبحت مستكبرة ظالمة.

وإليك بعض الأدلة النظرية العقلية التي تلزم العقل

بالإيمان بوجود الخالق الواحد المنزَّه عن كل ما لا يليق بكمال الربوبية والإلٰهيّة.

الدليل الأول

دليل الإلزام العقلي بين (الوجود والعدم)

١ ـ الأصل في الخالق الوجود فوجوده واجب عقلاً.

٢ ـ والأصل في الكون العدم فوجوده ممكن عقلاً.

٣ ـ ولا يمكن أن يكون السبب في إيجاد ما الأصل فيه العدم إلا واجب الوجود.

ونسير في هذا الدليل على أربعة مراحل:

المرحلة الأولى من الدليل:

لا يشك عاقل في الدنيا بأن الوجود يقابله العدم، وأنه لا ثالث بين الوجود والعدم، ولا ثالث وراء الوجود والعدم.

هذان اثنان إذا وجد أحدهما انتفى الآخر لا محالة، وإذا انتفى أحدهما وجد الآخر لا محالة. وهنا نتساءل مع أنفسنا فنقول:

أيهما الأصل؟ هل الوجود الذي يقابله العدم العام هو الأصل؟ أو العدم العام هو الأصل؟

وللإجابة على هذا التساؤل لا بد أن نسلك مسلك افتراض أن أحدهما هو الأصل، ثم ننظر هل يتعارض معه على أنه الأصل ما ينقضه أولاً؟ وعلى هذا فلنفرض أن الأصل لكل ما يخطر في الفكر وجوده هو العدم.

ومعنى العدم نفي ذات ما يخطر بالبال ونفي صفاته، فلا ذات ولا قوة ولا إرادة ولا علم ولا حياة ولا أي شيء، وبحسب هذا الافتراض نتسائل: كيف استطاع العدم الذي هو الأصل أن يتحول إلى الوجود؟ ألسنا نشعر بوجود أنفسنا؟ ألسنا نرى موجودات كثيرات من حولنا. والعدم معناه كما عرفنا هو النفي العام لكل ما يخطر بالبال، فكيف يأتي من هذا العدم العام ذوات وصفات وقوى فتنطلق بنفسها من العدم إلى الوجود؟ وانطلاقها لا يكون إلا بقوة، والمفروض أن هذه القوة عدم أيضاً.

إنه من المستحيل بداهة أن يتحول العدم بنفسه إلى الوجود، أو أن يوجد العدم أي شيء.

وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: هل انتقلوا من العدم إلى الوجود من غير خالق؟ أم هل كانوا هم الخالقين لأنفسهم في هذا الانتقال؟ وكلاهما من الأمور المستحيلة بداهة.

وهكذا لو كان العدم هو الأصل العام لم يوجد شيء من هذه الموجودات الكثيرة التي لا حصر لها، ولذلك كان علينا أن نفهم أن الأصل هو الوجود.

وبهذا الدليل: ثبت بشكل عقلي قاطع أنه لا يصح أن يكون العدم هو الأصل، ولما كان الأمر كذلك فقد ثبت بشكل عقلي قاطع أيضاً: أن الأصل هو الوجود، لأن الوجود كما سبق نقيض العدم ولا واسطة بينهما.

ثم نقول: إن ما كان هو الأصل بين شيئين متناقضين لا يحتاج وجوده إلى تفسير أو تعليل. لأنه متى احتاج وجوده إلى تعليل لم يكن أصلاً، وإنما تطلب الأسباب والتعليلات للأشياء التي ليست هي الأصل.

وبهذا الاستدلال ظهر لدينا بوضوح شيئان:

أ ـ أن الأصل هو الوجود.

ب ـ أن الأصل لا يتطلب في حكم العقل سبباً ولا تعليلاً أكثر من أن يقال: إنَّه هو الأصل.

المرحلة الثانية من الدليل:

إذا كان الوجود هو الأصل لا محالة فهل يمكن أن يكون لهذا الأصل بداية؟ وهل يمكن أن يلحقه العدم؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول:

١ ـ إن ما كان وجوده هو الأصل لا يصح عقلاً أن يكون لوجوده بداية؛ لأن ما كان لوجوده بداية فلا بد أن يحتاج في وجوده إلى سبب أوجده، وما كان كذلك لا يمكن أن يكون وجوده هو الأصل.

٢ ـ إن ما كان وجوده هو الأصل لا يمكن أن يلحقه العدم، لأن كل زمن لاحق نفرض أن يطرأ فيه العدم على ما أصله الوجود نقول فيه أيضاً: لا يزال الوجود هو الأصل، ولا سبب لأن يطرأ عليه العدم أبداً، لأنه لا يطرأ العدم على أي موجود من الموجودات إلا بوصف أن يكون العدم فيه هو الأصل، وإنما انتفى ذلك في زمن ما بسبب من الأسباب، فهو ينتظر زوال السبب حتى يعود إلى أصله، وقد ثبت لدينا أن العدم من حيث هو مستحيل أن يكون هو الأصل العام ضد الوجود.

ولذلك يستحيل عقلاً أن يطرأ العدم على وجود علمنا أنه هو الأصل، وإلى هذه الحقيقة جاءت الإشارة

في قوله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

فالحي الذي لا يموت هو من كان وجوده هو الأصل وكذلك حياته وصفات الكمال فيه، فلذلك لا يمكن أن يطرأ عليه العدم أو الموت.

المرحلة الثالثة من الدليل:

علمنا في المرحلتين السابقتين:

أ ـ أن الوجود من حيث هو يجب عقلاً أن يكون هو الأصل.

ب ـ أن ما كان وجوده هو الأصل استحال أن يكون له بداية وأن يطرأ عليه العدم.

والآن فلنلقِ نظرة على الموجودات التي تقع تحت بحالِ إدراكنا الحسّي، في هذا الكون الكبير، لنرى هل تنطبق عليها فعلاً الحقيقة الأولى؟ وهي أن الأصل فيها لِذَاتها الوجود. أو ينطبق عليها ضدها؟ وهي أن الأصل فيها العدم.

وهنا تبدو لنا حقيقة أننا لم نكن ثم كُنَّا، ونحن

صنف ممتاز التكوين في هذا العالم، قال تعالى في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وأن أشياء كثيرة كانت في طيِّ العدم في أشكالها وصورها ثم وجدت كما هو مشاهد لنا باستمرار. كما تبدو لنا صورة التغيرات الكثيرة الدائمة في كل جزء من أجزاء هذه المواد الكونية التي نشاهدها، أو نحسُّ بها أو ندرك قواها وخصائصها.

فمن موت إلى حياة، ومن حياة إلى موت، ومن تغيرات في الأشكال والصور إلى تغيرات في الصفات والقوى، وكل ذلك لا يعلَّل في عقولنا وفق قوانين هذا الكون الثابتة التي استفدناها من الكون نفسه إلا بالأسباب المؤثرة التي تحمل سر هذه التغيرات الكثيرة المتعاقبة في كل شيء من هذا الكون على اختلاف جواهره وصفاته، سواء منها المتناهي في الصغر أم المتناهي في الكبر.

ومن هذه الأسباب ما نشاهده، ومنها ما نستنتجه استنتاجاً، ولا نزال نتسلل مع الأسباب حتى نصل إلى سبب مجهول الذات هو سبب الأسباب الأول.

وهنا نقول: لو كان الأصل في هذه الموجودات

المعروضة على حواسنا هو الوجود لم تكن عرضة للتحوّل والتغير والزيادة والنقص والبناء والفناء، ولم تحتج صور وجوداتها وتغيراتها إلى أسباب ومؤثرات.

وبما أنها عرضة للتحول والتغير، وبما أن قوانينها تفرض احتياجاتها إلى الأسباب والمؤثرات، لزم عقلاً أن لا يكون الأصل فيها هو الوجود، وإنما يجب عقلاً أن يكون الأصل فيها هو العدم.

لذلك: فهي تحتاج في وجودها إلى سبب مُوجِد، وسنعرض إلى مبدأ السببية في دليل خاص. وبهذا المرحلة من الدليل ثبت لدينا ما يلي:

أ ـ أن الأصل هو العدم في جميع هذه الأشياء الكونية القابلة للإدراك الحسّي، وكل ما شابهها في الصفات.

ب ـ وإذْ كان الأصل في جميع هذه الأشياء الكونية العدم وجب عقلاً أن يكون لها سبب مؤثر نقلها من العدم إلى الوجود في مرحلة وجودها الأول، ولا يزال يؤثر باستمرار في جميع صور تغيراتها المتقنة الحكيمة.

وقد عرض القرآن إلى حقيقة أن الأصل فينا العدم وأننا لم نكن ثم كُنّا في قوله تعالى في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا
(١) إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا
بَصِيرًا (٢)﴾.

ومعلوم بداهة أن المسبوق بالعدم لا بد له من موجد أوجده وخالق خلقه وصوره.

المرحلة الرابعة والأخيرة من الدليل:

علمنا من المراحل الثلاث السابقة الحقائق الثلاث التالية:

١ ـ أن الوجود من حيث هو يجب عقلاً أن يكون هو الأصل.

٢ ـ أن ما كان وجوده هو الأصل استحال أن يكون له ابتداء وأن يطرأ عليه العدم.

٣ ـ أن هذه الأشياء الكونية المعروضة على حواسّنا ومداركنا والتي نحن جزء منها وكذلك كل ما شابهها: الأصل فيها العدم ويحتاج وجودها إلى سبب موجد.

وهنا نقول: حيث اجتمعت لدينا هذه الحقائق الثلاث التي لا مفر منها ولا محيد عنها فلا بد لنا من التوفيق بينها بشكل تقبله العقول قبولاً تاماً من غير اعتراض، وذلك لا يكون إلا وفق صورة واحدة لا ثانية لها وهي أن نقول:

أولاً: لا بد عقلاً من وجود موجود عظيم وجوده هو الأصل في الكائنات، وعدمه مستحيل، لذلك فهو (واجب الوجود عقلاً).

ثانياً: هذا الكون المشاهد بما فيه من أرض وسماوات، ونجوم ومجرات، وجامد ونبات، وأحياء وأموات، الأصل فيه العدم، ولا بد لإخراجه من العدم إلى الوجود من سبب موجد.

ثالثاً: لا يكون السبب الموجد للكون بجميع ما فيه إلا موجوداً عظيماً وجوده في الأصل، وهو واجب الوجود.

وذلك هو (الله سبحانه وتعالى).

خاتمة حول هذا الدليل:

وبهذه الطريقة من الاستدلال يسقط نهائياً تساؤل المتسائلين كيف وجد الله سبحانه؟ لأنه تساؤل لا يعتمد على منطق وعقل، ذلك أن مثل هذا التساؤل إنما يرد في موجود تثبت قوانينه وصفاته أن الأصل فيه العدم، فهو يحتاج إلى موجد حتى يوجده ويبدعه من العدم.

أما الموجود الذي يجب عقلاً أن يكون الأصل فيه الوجود ولا يجوز عليه العدم فلا يمكن أن يتعرض

وجوده إلى مثل هذا التساؤل بحالٍ من الأحوال، وإيراد تساؤل من هذا النوع يتنافى مع الحقيقة العلمية الثابتة وهي (أنَّ الأصل فيه هو الوجود).

الدليل الثاني
دليل الإمكان في الكون

بملاحظتنا لكل شيء في الكون سواء أكان من الأشياء المادية التي يمكن أن ندركها ببعض حواسنا كالأرض والكواكب والنجوم، أم كان صفة من الصفات القائمة في الأشياء المادية التي نَستنبِط وجودها بعقولنا كالجاذبية الخاصة الموجودة مثلاً في حجر المغناطيس. وكالجاذبية العامة الموجودة مثلاً بين الكتل المادية، وكخواص المركبات المادية التي لا حصر لها في الكون، سواء في ذلك الظواهر الكيميائية أم الفيزيائية.

وبملاحظتنا لما نعقل عن جواهر الوحدات المستقلة المتحيزة التي لا تدخل في نطاق إحساسنا. كالملائكة والجن وكيفية تكوينها وأعراضها وصفاتها.

من خلال ملاحظتنا لجميع هذه الأشياء الكونية ندرك بداهة في كل واحد منها أنه كان من الممكن عقلاً أن يتخذ صورة وصفة وحالة غير ما هو عليه

الآن، فهنالك احتمالات كثيرة لا حصر لها في مجال الممكنات، لا يرى العقل مانعاً من أن تتحول هذه الأشياء الكونية إلى واحد منها.

فالعقل لا يمنع من أن تتخذ مثلاً صورة غير الصورة التي هي عليها، وشكلاً غير الشكل الذي هي عليه، أو حدّاً غير حدها الواقع كمَّاً وكيفاً، فتكون مثلاً أكبر مما هي عليه أو أصغر، أو مركبة غير التركيب الذي هي عليه، أو في حيز من الكون وزمان من الدهر غير حيزها وزمانها، أو أن تكون لها صفات وقوى غير صفاتها وقواها، أو حركاتٌ ومدارات وسرعات مغايرة لما هي عليه.

كل هذا وأمثاله من الاحتمالات التي لا حصر لها مما يجوِّزه العقل بداهة، ويعتبره من الممكنات العقلية التي لو كان تركيب الكون على وفقها لم يكن في ذلك منافاة لأصل عقلي.

فما المانع العقليُّ مثلاً من أن يكون الليل والنهار سرمديين؟ وما المانع العقلي من أن يكون الإنسان على غير هذا الوضع القويم أو أكبر أو أصغر مما هو عليه جسداً وهامة؟ وما المانع من أن يكون العقل في البهائم والنطق في العجماوات؟ وما المانع من أن تكون

الأرض أدنى إلى الشمس والقمر من الوضع الذي هي عليه؟ أو غير ذلك من أشياء كثيرة.

فإن قيل: إنَّ الحكمة تقتضي أن تكون هذه الأشياء كما هي عليه الآن، وإلاَّ لاختل النظام، وفسدت النتائج المرجوة من هذا الكون، قلنا: الحكمة صفة الحكيم، وذلك الحكيم هو الله تعالى. ونقول من ناحية أخرى: بما أن كل شيء في هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذي هو عليه، فإن عقولنا لا بدَّ أن تحكم بداهة بأن ما كان كذلك فلا بد له من مخصّص قد خصصه باحتمال موافق للحكمة والإبداع والإتقان من جملة احتمالات كثيرة، ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح، أو القول بأن موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريقة التصادف، وكلاهما مستحيل عقلاً، ونحن بوصفنا عقلاء في هذا الكون لا نقبل أن نلتزم المستحيلات، بينما نرى أن قوانين هذا الكون ثابتة لا تتخلف أبداً، ومن قوانينه رفض الترجيح بلا مرجح، ورفض احتمال المصادفة في نظام هذا الكون البديع.

وأي الأمرين أسلم وأكثر قبولاً في العقل: هل

إحالة هذا النظام الحكيم البديع في الكون على المصادفة المستحيلة في العقل؟ أم على حكمة مخصِّصٍ حكيم قد خصص هذا الممكن في احتماله الموافق للحكمة؟.

ولما ثبت لدينا احتياج هذه الممكنات إلى المخصص الحكيم فإن عقولنا تحكم بشكل قاطع أن هذا المخصِّص يجب أن لا تكون ذاته أو صفاته محلاً لأي احتمال من الاحتمالات الممكنة التي تتعرض لها هذه الأشياء الكونية في نظر العقل، وإنما يجب أن يكون على وضع ثابت واجب عقلاً لا يقبل العقل بحال من الأحوال أن تحتمل ذاته أو صفاته وضعاً آخر.

هذا الموجود الثابت في ذاته وفي صفاته، والذي يوجب العقل أن يسند إليه تخصيص هذه الممكنات في واحد من احتمالاتها الكثيرة، هو واجب الوجود، وليس بممكن الوجود حتماً (وهو الله تعالى) وبذلك يثبت المطلوب.

ونستطيع أن نسمِّي هذا الدليل بـ (دليل الإمكان في الكون).

وقد أشار القرآن المجيد إلى دليل الإمكان في عدة آيات منها ما يلي:

أ ـ قول الله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

ب ـ وقوله تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

ج ـ وقوله تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾.

د ـ وقوله تعالى في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

هـ ـ وقوله تعالى في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ
﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا
لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ
﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ
جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

فقد بيَّن الله سبحانه في هذه الآيات وأمثالها من القرآن الكريم أن الصور والأنظمة والأوضاع التي نشاهدها في الكون من الممكن أن تتخلَّف وتتغير، وأن تتحول من وجود إلى عدم ومن وضع إلى وضع، وذلك بقدرة الله تعالى، فإذا أراد أن يسلب هذه النظم الحكيمة القائمة في الكون، وينجم عن ذلك الإضرار بحياة الناس في الأرض، فهل يستطيع أحد غير الله أن يثبتها على أوضاعها؟.

فلو جعل الله الظل ساكناً لا ينسخه الضياء، ولو جعل الله الليل سرمداً أو النهار سرمداً، فماذا سيكون وضع حياة الإنسان على وجه الأرض؟ لا شك أن ذلك سيكون خطراً محدقاً بالمجموعة البشرية، لأن النهار بشمسه سبب دفئهم ورزقهم، والليل بسكونه وظلمته لباسهم وراحتهم بعد المشقة والتعب.

ثم أليس من الممكن أن يُذهب الله هذا الخلق

ويأتي بغيره؟ أليس من الممكن أن يغوِّر الله الماء في الأرض فلا يستطيع الناس له طلباً؟

أليس من الممكن أن يجعل الله الزروع والثمار حطاماً فيحرم الناس من أرزاقها؟

أليس من الممكن أن ينزل الله الماء من السحاب مالحاً كدراً أجاجاً غير صالح للشرب وري المزروعات؟

إذا كان كلّ ذلك من الممكنات فلا بد أن يكون وضعها القائم فعلاً ممكناً أيضاً، لأنه أحد الاحتمالات المقابلة للصور المفروضة، وإذا كان ممكناً فلا بد أن يكون له مخصِّص قد خصصه بأحد أحواله المحتملة.

وهذا المخصص هو الموجد الذي أوجدها من عدم، إذ الأصل في جميع الممكنات العدم، ولا تخرج من العدم إلى الوجود إلا بموجد قادر حكيم (وهو الله سبحانه).

الدليل الثالث
دليل التغير والسببية

ونسير في هذا الدليل على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى من الدليل:

نتظر إلى الموجودات الكونية سواء منها الموجودات المادية المدركة بالحس، أو الموجودات الأخرى

الخارجة عن نطاق الإدراك الحسّي والتي نستنتج وجودها ببرهان العقل.

فنلاحظ أن حوادث التغير لا تنفك عنها أبداً، فما من شيء في هذا الكون الفسيح إلاّ ونلاحظ أنه في أوضاع من التغيرات الكثيرة بشكل مستمر. هذه التحاويل الكونية في المواد الكيميائية حوادث مستمرة، وهذه الأعراض في الظواهر الفيزيائية في تغير مستمر.

نرى ذلك في تحول البزور إلى أشجار وثمار، ثم تحولها إلى رماد أو هشيم يتفتت ثم يتحول إلى عناصره الكيميائية والفيزيائية البسيطة أو المركبة.

ونرى ذلك في تحول الأغذية إلى دماء في الأحياء، ثم إلى نطف، ثم إلى أحياء أخرى لها وحدات مستقلة في صفاتها وأعراضها وخصائصها وأعمارها وطباعها.

ونرى ذلك في الحركة الدائبة في هذه الكرات الكونية السابحة في أفلاكها، وفي عوالم المجرات الكونية الكبرى كما يذكر علماء الفلك.

ونرى ذلك في الحركات الدائبة في الذرّات، كما يذكر عملاء الذرة في حديثهم عن الإلكترونات السالبة والموجبة.

ونرى ذلك في تحوّل الصوت إلى كهرباء،

والكهرباء إلى اهتزازات في الفضاء، ثم تعود كرَّتها الثانية حتى ترجع فتظهر أصواتاً في الأجهزة اللاقطة (الراديو).

ونرى ذلك في تبخر الماء وتجمعه سحباً، ثم تميعه وهطوله غيثاً يحمل الخير والخصب لأرض مجدبة ميتة عطشى.

ونرى ذلك أيضاً في تحول الفحم مثلاً إلى ألماس في الأزمان الطويلة، وتحول الصخور بمرور الدهور من صفة إلى صفة، ومن وضع إلى وضع، بتأثير أنواع الحرارة والضغوط.

ونرى ذلك يومياً في تعاقب الليل والنهار، وطلوع الشمس والقمر وغروبهما، وظهور النجوم وأفولها.

ونرى ذلك في تعاقب الصيف والشتاء، والحر والبرد، كما نراه في الحياة والموت، ومعلوم أن الحياة أكبر ظاهرة من التحول عجيبة، يولد سرها مع الأحياء كميناً مجهولاً فيها. ثم يموت سرها مع الأحياء إذا ماتت.

إلى أشياء أخرى كثيرة لا تتناهى استقصاءً وحصراً، ومنها أشياء تكون حالة التغير فيها ظاهرة سريعة. كالحيوان والنبات، أو بطيئة لا تظهر لأَنظارنا إلا بألوف

السنين أو بملايينها، كالتغيرات الكونية التي تظهر في عوالم النجوم وفي الأجسام الجامدة الصلبة.

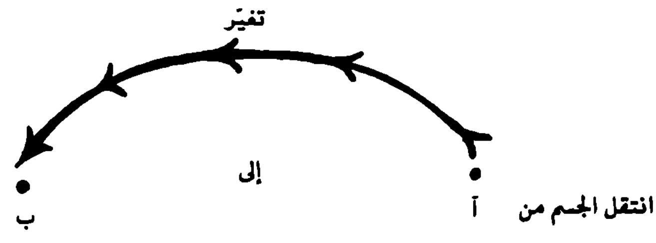
إننا نعيش إذن في عالم نستطيع أن نسميه (عالم المتغيرات) وبعد هذه المقدمة المزوَّدة بأمثلة كونية متعددة نستطيع أن نمثل حالة التغير هذه في كل جزء من الكائنات في هذا العالم المادي الفسيح، مبتدئين من لحظة تفكيرنا الآن، وراجعين بذلك إلى الزمان الماضي على شكل خط متموج.



جانب الماضي　　　　جانب الحاضر

المرحلة الثانية من الدليل:

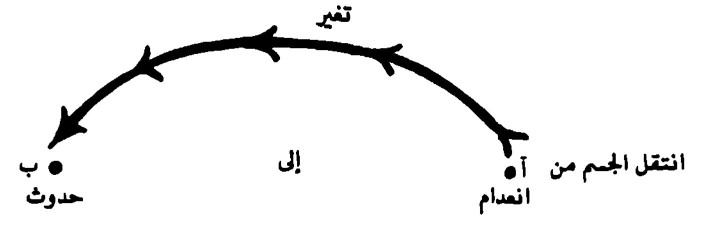
ثم نقول: إن التغير لا ينفك عقلاً عن معنى الحدوث، لأنه لو فرضنا أنه حصل تغير في المكان لجسم من الأجسام، مع العلم بأن التغير المكاني هو أبسط أنواع التغيرات الكونية على الإطلاق، ولنرمز للمكان الذي كان فيه هذا الجسم بنقطة (أ) وللمكان الذي انتقل إليه الجسم بنقطة (ب) ولنضع ذلك على الشكل التالي:



فالحادثة حادثة تغيّر مكاني من نقطة (أ) إلى نقطة (ب) ونستطيع هنا أن نقول إن الجسم قد حدث وجوده في نقطة (ب) بعد أن لم يكن، وانعدم وجوده من نقطة (أ) بعد أن كان.

وبهذا نرى أن هذا التغيّر المكاني الذي هو أبسط أنواع التغيرات لم ينفك عن معنى الحدوث في جهة والإنعدام من الجهة الأخرى.

ونعيد الشكل السابق بإضافة كلمة (حدوث) إلى جانب نقطة (ب) وكلمة (انعدام) إلى جانب نقطة (أ).



هذا في التغيرات المكانية، فكيف بالتغيرات الجوهرية التي تتناول التغيرات في التركيب والصفات والخواص وغير ذلك؟

المرحلة الثالثة من الدليل:

وبملاحظتنا للقوانين العامة لهذا الكون التي لم تتخلَّف في شيء منها، والتي هي من الأمور الْبَدَهِيَّة في نظر الناس وفي نظر العلم التجريبي، نرى أنه لا بدَّ لكل تغير يحدث في أيّ جزء من أجزاء الكون من سبب أثّر فيه تأثيراً يكفي لأن يحوله ويغيره من وضع إلى وضع آخر.

ثم نقول إن أبسط أنواع التغيرات وهو التغير المكاني كانتقال قطعة من الصخر مثلاً من نقطة (أ) إلى نقطة (ب) لا يسلِّم عاقل من العقلاء أن هذا التغير يحدث بنفسه من غير سبب يؤثر فيه ذلك الانتقال، تطبيقاً لمبدأ السببية البدهي في عقولنا، والذي استنتجناه من قانون الكون الدائم، فلو وضعت في صندوقك المقفل مثلاً ما جمعته من نقود ذهبية في صرّة خاصة، ثم غبت عنه يوماً ورجعت إليه، فلم تجد صرة نقودك، وبعد البحث الشديد والتحرِّي وجدت نقودك كلها داخل صرتك الخاصّة في صندوق جار لك، ولما ثبت أنها هي نقودك وصرّتك فعلاً ادّعى أمام القاضي أنها انتقلت إلى صندوقه بنفسها، ذلك أنه رآها تمشي في الهواء بنفسها متجهة إلى صندوقه، وما زالت العقبات تذلل في

الطريق دون وساطة أحد، فتنفتح مغاليق الأبواب بنفسها، وتنشق الجدران بنفسها، ونحو ذلك من أخيلة خرافية، حتى وصلت إلى صندوقه ودخلت فيه، وهو لا يعلم من أين جاءته، وقد فرح بها وظن أنها اختارته دون غيره.

لو ادّعى من وجدت نقودك عنده هذا الدعوى فهل تصدقه؟ أو هل يوجد عاقل في الدنيا يصدّقه أو يسلّم بما يقول؟

إنَّ هذا التغير وهو أبسط أنواع التغيرات لا يسلّم العقلاء بأنه حدث بنفسه، فما بالك بالتغيرات الجوهرية في التركيب والتحليل، وتحوُّل التراب إلى أغذية، والأغذية إلى أجسام حيّةٍ متحركة، دبَّت فيها الحياة فأصبح منها المدرك العاقل ذو القوة الفائقة التي يستطيع بها أن يفعل الأعاجيب، ويستخدم قوى الكون الكامنة، فيتصرف فيها تصرفات عجيبة، فلربما استطاع أن يطلق من مكامن القوى في الكون قوىً تبدد المدن والقرى، وتزلزل الجبال الراسيات، وتثير التيارات في المحيطات.

إنَّ من المسلَّم به أن كل هذه التغيرات الكونية، لا

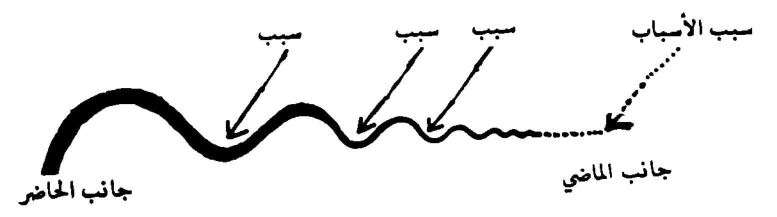
بدَّ لها قطعاً من سبب حقيقي كامل القدرة، صدرت عنه هذه القوى الكونية الكبرى، وتمت بخلقه هذه التغيرات الكونية الهائلة، والحوادث العجيبة، وكاملُ الحياة أيضاً، دبت عنه صورة الحياة في الأجساد الحية، وكاملُ العلم، صدرت عنه العقول القابلة للعلم والمعرفة، وكامل الحكمة؛ صدر عنه كل أمر متقن محكم، إلى غير ذلك من صفات الكمال، ولا يمكن أن يكون هذا القادر الحي الحكيم العليم إلاً منزهاً عن التغير والتحول والضعف، فلا بد أن يكون ثابتاً كامل الصفات واجب الوجود في ذاته وفي صفاته، لئلا يلزم احتياجه إلى سبب آخر، بمقتضى التشابه بينه وبين عالم المتغيرات لو كان كذلك، وهو محال عقلاً، وهذا الذي هو واجب الوجود في ذاته وفي صفاته (هو الله تعالى).

ولذلك نعيد الشكل السابق بإضافة السبب المؤثر قبل نقطة (أ).

انتقل الجسم بسبب
مؤثر من
آ
انعدام
إلى
ب
حدوث

وإذا رجعنا إلى إيضاح فكرة السببية في الخط المتوِّج الذي رمزنا به إلى صورة التغيرات الدائمة في

كل ذرة من هذا الكون، عند كلامنا على المرحلة الأولى من الدليل لزمنا أن نضيف إلى جانب كل موجة تغير سبباً ما وفق الشكل التالي:



وبذلك نرى أنه لا بد أن ننتهي في آخر الأمر إلى سبب الأسباب الذي هو السبب الحقيقي الأول في كل حادثة تغير، ولا يكون هذا إلا واجب الوجود كامل الصفات (وهو الله سبحانه وتعالى).

أَمثلة من إقامة الحجة بمضمون هذا الدليل:

١ ـ هذا الدليل نفسه هو الدليل الذي اعتمد عليه أبو حنيفة رضي الله عنه حينما أقام الحجة على الزنادقة مثبتاً لهم وجود الله تعالى.

فقد ذكر المؤرخون في مناقبه: أن بعض الزنادقة طلبوا إليه أن يجادلوه في الله، فذكر لهم موعداً يأتي إليهم فيه لمجادلتهم وإقامة الحجة عليهم بوجود الله سبحانه.

ولما حان الموعد تأخر عنهم رضي الله عنه وهم

ينتظرون، ثم قدم إليهم بعد أن يئسوا من مجيئه، فعاتبوه في التأخر، فقال لهم معتذراً: لقد قدمت إليكم في الموعد المحدد، ولكنني لبثت طويلاً على شاطىء دجلة باحثاً عن صاحب زورق يجتاز بي النهر فما وجدت، ولما يئست وهممت بالرجوع رأيت ألواحاً من الخشب قادمة بنفسها، وجعلت تنضم إلى بعضها حتى صارت بين يديَّ زورقاً حسناً، فركبته وقطعت به النهر، وقدمت إليكم الآن.

فقال الزنادقة جميعاً لأبي حنيفة: أتهزأ بنا؟ وهل يمكن أن تأتي ألواح بنفسها كما وصفت فتكون زورقاً؟ فقال لهم: ما اجتمعتم لتجادلوني به، فإذا كنتم لا تصدقون أن زورقاً يصنع نفسه بنفسه، فكيف تريدون منيٍّ أن أصدق أم كيف تصدقون أنتم في عقولكم أنَّ هذا الكون المتقن العجيب قد جرت حوادث تغيراته بنفسه دون خالق عظيم؟ فبهت الزنادقة وقامت عليهم الحجة الدامغة، وأسلموا على يده رضي الله عنه.

هذه القصة عرضْتُ لك فيها معنى ما جرى بين أبي حنيفة ومجادليه دون التزام لحكاية الألفاظ.

٢ ـ إن فكرة التغير والسببية قد قامت في عقول

أكثر الفلاسفة القدماء فجعلتهم يؤمنون بواجب الوجود، ذلك أنهم رأوا أحوال الأرض وتغيراتها، فثبت لديهم أنها بحاجة إلى مؤثر، وحكموا في فلسفتهم بذلك، ولكن بعضهم لما نظروا إلى الأفلاك زعموا أن اتصاف السموات بمقاديرها وأحيازها وأوضاعها وحركاتها أمر واجب لذاته، ممتنع التغير عن هذا الوضع، فيستغني عن المؤثر، ثم لمّا أرادوا بيان المؤثر في أحوال الأرض وتغيراتها قالوا: نحيل ذلك على الأفلاك والكواكب والنجوم التي هي واجبة الوجود، ولما رأوا في الأرض الحياة والعقل لزمهم أن يقولوا، إنّ الأفلاك عاقلة حية، حتى استطاعت أن تمد أحياء الأرض بالحياة والعقل، ومن ثَمَّ قامت عندهم فكرة العقول العشرة وما إلى ذلك من ضلالات.

لقد ألزمهم التفكير من جهة الأرض بوجوب التسليم عقلاً بواجب الوجود، ولما جهلوا مشابهة السماء للأرض، ورأوها في حدِّ نظرهم ثابتة الصفات، زعموا أنها هي واجبة الوجود، فألّهوا الأفلاك.

وهنا أرشدهم سيدنا إبراهيم عليه السلام ـ في محاجته لقومه ـ إلى مماثلة الأفلاك والنجوم وكلّ ما في السماء للأرض، في تغيراتها التي يقضي العقل بأنها

حوادث تحتاج إلى مؤثر واجب الوجود، وأثبت لهم أنّ الربّ ـ تعالى ـ الذي هو واجب الوجود، غيْر هذه الأجرام السماوية التي يؤلّهونها، بدليل أفولها وتغيرها المشاهد بالحسّ، وقد حكى الله عنه ذلك بقوله تعالى في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

وكانت فلسفة إبراهيم عليه السلام في نظره العميق هي طريق إيمانه بالله أول الأمر، ثم جاءته النبوة فكان من المرسلين.

٣ ـ قام هذا الدليل نفسه في نفس الأعرابي الذي قال ببداهته: «وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا تدلأن على الواحد القدير».

٤ ـ قام هذا الدليل نفسه في عقول كثيرة من العلماء الماديين الطبيعيين، واستدلوا به على وجود الخالق جل وعلا.

ومنهم (أندرو كونواي إيفي) من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية من سنة ١٩٢٥م إلى سنة ١٩٤٦م

فقد كتب يقول تحت عنوان (وجود الله حقيقة مطلقة):
«إن أحداً لا يستطيع أن يعمل إلا على أساس السببية: إنني أسلِّم أن لقانون السببية وجوداً حقيقيًّا».

التنبيه على دليل التغير والسببية في القرآن الكريم:

لقد نبّه القرآن الكريم على معنى التغيّر الدائم القائم بكل شيء في هذا العالم، في كثير من الآيات الكريمة، التي تتضمن لفت النظر إلى وجود الله سبحانه، وإلى صفة خلقه للأشياء.

ولئن كان التعبير بلفظ السبب ومعنى السببية من وجهة النظر التي جاءت في الدليل، فإن الله سبحانه قد اختار في القرآن اللفظ الأدق في التعبير، والذي يتناسب مع صفة الربوبيّة. ألا وهو لفظ (الخلق) ذلك أن السببية متى انتهت إلى العليم الحكيم المريد المختار القادر على كل شيء كانت خلقاً.

فلكل صورةٍ من صور التغيّر في هذا العالم الذي أسميناه عالم المتغيرات خلق رباني، كان هو السبب في حدوث ظاهرة التغير.

وما أكثر الآيات القرآنية التي تشير إلى مضمون هذا الدليل بصيغة الخلق، لأن صيغة الخلق هي التي

تتناسب مع الربوبية كما سبق، ومن تلك الآيات القرآنية الكثيرة قول الله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾[1].

---

(١) يزجي سحاباً: يسوقه سوقاً رفيقاً إلى حيث يريد. يجعله ركاماً: متراكماً بعضه فوق بعض. الوَدْق: هو المطر. السَّنا: شدة الضوء.

إننا نرى هذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم تتحدث عن التغيرات الكثيرة، التي نشاهدها في هذا العالم، وتشير إلى أن هذه التغيرات لا بدَّ لها من سبب. وأن سببها الحقيقي الأول لا بد أن ينتهي إلى معنى الخلق والإبداع، وذلك لا يكون إلا من صفات الخالق، وعلى طريقة الإيجاز القرآني واختصار سبيل الحجة ذكرت الآيات القرآنية الخلق من أول الأمر.

فتحويل الأتربة بوساطة الماء إلى أغذية، والأغذية إلى دماء، والدماء إلى نطف، ثم تحويلها إلى بشر سويّ، منه الذكر ومنه الأنثى.

وإزجاء السحاب، والتأليف بينه، وجعله ركاماً، وإخراج الوَدْق من خلاله، وإنزاله على أرض دون أرض وفق المشيئة، وإضاءة البرق وسط السحب، وتقليب الليل والنهار، وتحويل الماء إلى دواب حية، وجعل الدّوابّ على أنواع مختلفة وأصناف متعددة.

كل هذه الأشياء ونظائرها التي لا تُحصى صورٌ من التغيرات الكونية الدائمة، التي تتطلب في نظر العقل سبباً مؤثراً، وقد عرفنا أنه متى انتهى السبب المؤثر إلى سبب الأسباب كان ذلك خلقاً لا محالة، لأنه لا يكون سبب الأسباب إلا قادراً عليماً مريداً مختاراً حكيماً،

الدليل الرابع
دليل الإتقان في الكون

من أعظم ما يدهشنا في أنفسنا وفي الكون من حولنا هو هذا الإتقان العجيب، في الصنع والتركيب، فما تصادف من شيء في الأرض ولا في السماء إلا وهو في غاية الإتقان، مركب أحكم تركيب يؤدي به إلى غايته التي خلق من أجلها، وباعتباره جزءاً من وحدته التي هو أحد أجزائها، أو باعتباره فرداً في مجموعة هو واحد من نوعها، أو باعتباره مجموعة هي واحدة من جنس مجموعات كثيرة، كل ذلك في جملة هذا الكون الذي تنظمه وحدة مهيمنة لا يستطيع أي جزء منه أن يتحرّر منها أو يفلت من قانونها.

أليس من الإتقان العجيب هندسة هذا الكون في مخطط كواكبه ونجومه؟ حتى إنَّ أيَّ تغير فيه يؤدي به إلى الخلل والنقص، أو الخراب والفساد، سل عالم الفلك يظهر لك من دقائق إتقان الكون ما هو فوق الدهشة والحيرة.

أليس من الإتقان المدهش هندسة هذا الإنسان في خلقه وتكوينه؟ سل عالم التشريح عن مخطط جسم الإنسان وإتقانه وخواصه وميزه، يبين لك من صنعه عجباً يدهش العقول ويحير الألباب.

أليس من الإتقان البديع المحيِّر هذه المجموعات الكبرى في عالم الحيوان؟ سواء منها الطائر والسابح، والماشي والزاحف، بأنواعها المختلفة المتقنة في أشكالها، وأوضاعها، وألوانها، وخواصها، وطبائعها، وطرق عيشها، وكبيرها وصغيرها، سل عالم الحيوان عن عجائب الحيوانات وغَرائبها، وإتقان تكوينها يُبدِ لك من أمرها عجباً يسلمك إلى الحيرة والدهشة في مدى حكمة صانعها.

أليس من الإتقان البديع المدهش هذه المجموعات الكبرى في عالم النبات؟ سواء فيها أشجارها وزروعها، هوائيها ومائيها، بثمارها وأزهارها وأوراقها وأخشابها، ولَدْنها وصُلْبها، بألوانها، وأشكالها، وطعومها، وروائحها، وخواصها، سل عالم النبات عن النباتات يشرح لك من أمرها ما يفجر في قلبك الإيمان بصانعها العظيم، الذي أتقن كل شيء صنعاً.

أليس من الإتقان البديع تكوين الأرض؟ ببحرها،

ويابسها، بجبالها، وأغوارها، ووديانها، وسهولها، وصخورها، ورمالها، وأتربتها، ومعادنها، بينابيعها وأنهارها، بألوانها وطرقها، بحرّها وبردها، وصيفها وشتائها، بليلها ونهارها، بسيرها في فلكها ودورانها حول محورها، بجميع خواصها وصفاتها، سل عالم الجغرافية وعالم الكيمياء وعالم طبقات الأرض، سل عالم الطبيعة أيّاً كان اختصاصه، يظهر لك من إتقان تكوين الأرض عجباً يهديك إلى رشدك، ويعرّفك بوحدة الصانع الحكيم الذي أتقن كل شيء صنعاً.

إنه كلما تقدّم وازدادت المعارف التجريبية، وتعرَّفَ الإنسان على دقائق جديدة من إتقان الصنع في هذه الموجودات الكونية، إزداد إيماناً بالصانع العظيم.

ثم إنّنا لا نرى ترتيباً متقناً محكماً في أيّ مركب من المركبات، إلاّ ويستدعي ذلك في أذهاننا التفكير بمن أتقنه ورتّبه هذا الترتيب المتقن الحكيم.

ذلك لأن احتمال الإتقان الموافق للحكمة في مُركّبَات تزيد أجزاؤها على عشرة أجزاء ذو نسبة عددية ضئيلة جداً، بالنظر إلى الاحتمالات الأخرى غير المتقنة التي تفوق كثرتها الحصر، والتي يمكن أن تتألف هذه المركبات على وفقها لو أنها كانت على سبيل المصادفة.

وإن عقولنا متى لاحظت مركّباً على وجه الإتقان والحكمة فإنها لا شك تفرض بداهة أن متقناً ما حيّاً عالماً قادراً مريداً حكيماً قد أتقن ترتيبها.

كما أنها ترفض رفضاً قطعياً أن يكون ترتيبها قد جاء على طريق المصادفة، لأن صورة الإتقان على سبيل المصادفة في المركبات ذات الأعداد الكبيرة من المستحيلات في مألوف العقلاء، كما أنها من المستحيلات أيضاً في نظر الحُسَّاب الرياضيين.

وفي الأمثلة القريبة البسيطة من حياتك:

تدخل إلى دارٍ فترى أثاثها مرتباً بنظام حسن موافق للمصلحة، فتقول بداهة لا شك أن هذا الترتيب لم يأتِ عن طريق المصادفة، وإنما هو بفعل فاعل مختار، ذي نظر صحيح.

ويعرض عليك بائع الساعات ساعة لتشتريها، فتسأل أوّل ما تسأل بعد أن يسرك شكلها عن الصانع الذي صنعها، لتعرف مستوى مهارته وجودة صناعته وخبرته، حتى تطمئن على حسن سيرها في المستقبل، وعلى دقة ضبطها للوقت، لأنك تعلم أنه يتوقف ما تطلبه منها من ضبط ومتانة على مقدار مهارة الصانع وإتقانه ونصحه.

إننا نؤمن بالصانع بداهة في كل الأمور الجزئية متى كانت موافقة للحكمة والمصلحة، أفلا نؤمن بالصانع العظيم الحكيم؟ بالله رب العالمين، من خلال موجودات لا تحصى في هذا الكون، كل جزء فيها موضوع في مكان لو وضع في غيره لتعطلت الحكمة منه، ولو وضع غيره من مكانه لحصل الخلل أيضاً في الترتيب والنظام ووجه الإتقان.

إن إتقان الصنعة في هذا العالم الزاخر بالمتقنات دليل واضح على الصانع المتقن الحكيم العليم، يشهده من الناس العالم والجاهل، الغبي والعاقل، الصغير والكبير، ويحكم به بداهة بأن الله حق، وهو على كل شيء قدير، وليس فوق حكم البداهة حكم لعاقل.

هذا عرض لدليل الإتقان، وقد سماه الكثيرون دليل العناية، لأن ظاهرة الإتقان يلاحظ فيها أول ما يلاحظ عناية الحكيم العليم بخلقه، وتهيئته صور الإتقان المناسبة لمصالحهم.

التنبيه القرآني على مضمون هذا الدليل:

ولقد جاء التنبيه على مضمون هذا الدليل بشكل مجمل في قوله تعالى سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

كما جاء إيضاحه في كثير من آيات القرآن الكريم، على وجه فيه شيء من التفصيل والتنبيه على كثير من صور الإتقان البديع في هذه المتقنات الكونية، إذْ لم يوجد شيء منه إلا مُتقناً محكماً.

منها قول الله سبحانه وتعالى في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾[1].

ففي هذه الآيات من سورة النبأ تنبيه على جزئيات

---

(١) مهاداً: فراشاً للاستقرار عليها، أوتاداً: أي كالأوتاد للأرض، لئلا تميد بنا، سباتاً: قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم، سراجاً وهاجاً: مصباحاً غاية في الحرارة وهي الشمس. المعصرات: السحائب. ماء ثجاجاً: منصبّاً بكثرة، ألفافاً: ملتفة الأشجار لكثرتها.

كثيرة يتجلّى فيها إتقان صنع الله لمن تدبَّر وعقل.

ومنها قوله تعالى في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢)﴾[1].

وفي هذه الآيات أيضاً من سورة عبس صور كثيرة من صور إتقان صنع الله في خلق الإنسان، وفي خلق ما يحتاجه في حياته، من طعام نباتي، وطعام حيواني، وما يحتاجه في حياته من وسائل نقل حيوانية إنها صور متكررة فيما نشاهد في هذه الأرض، ولكنَّ فيها عبراً كثيرة تنطق بعظمة متقنها وخالقها، لمن أراد أن يذكَّر أو أراد أن يكون شاكراً لنعم الله التي لا تحصى.

---

(١) قُتِلَ الإنسان: لُعِنَ الكافر أو عُذِّب. فقدَّره: فهيأه لما يصلح له. قضباً: علفاً رطباً للدواب. حدائق غلباً: بساتين عظاماً متكاثفة الأشجار. أبّاً: كلأ وعشباً، أو هو التبن خاصة.

ومنها قوله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾[1].

وهاتان آيتان من سورة الفرقان فيهما تنبيه على مظاهر إتقان صنع الله في الشمس والقمر والنجوم وتعاقب الليل والنهار، وفي هذا المظهر من مظاهر صنع الله المتقن مجال واسع جداً لعلماء الفلك الباحثين.

* * *

(١) بروجاً: منازل للكواكب السيارة. سراجاً: شمساً. خلفة: أي يتعاقبان في الضياء والظلمة.

المقولة الثامنة

صفات الخالق جلَّ وعلا

ظاهرة العمل المتقن تدل على صفة الإتقان لدى من قام به، فالقصر الجميل المتقَنُ في بنائه، والمتقَنُ في هندسته، والمتقن في أثاثه وتزيينه، يدل بداهة على أن من هندسه وبناه وأثثه وزينه مُتْقِنٌ، خبير بالهندسة، حسن الذوق في اختيار الأثاث وتزيين القصور.

والمكنة الآليَّة التي تؤدي عملها أداءً جيداً، تدلُّ بداهة على أن مبتكرها وصانعها ذو معرفة بالآلات الصناعية وهندستها، وذو مقدرة على الابتكار.

والإتقانُ يستلزم العلم والحكمة (وهي حسن اختيار الاحتمال الأفضل من الوجوه المختلفة) ويستلزم أيضاً القدرة على التنفيذ.

فإذا بدت ظاهرة الإتقان في العمل، دلَّت هذه الظاهرة على أن من قام بهذا العمل لديه من العلم

والحكمة والقدرة على التنفيذ بمقدار ما يتطلب هذا العمل من علم وحكمة وقدرة على أقل تقدير.

وظاهرة العمل الكبير الضخم الذي يتطلب قدرة عظيمة، تدلُّ بداهة على أن من قام بهذا العمل الكبير لديه من القدرة ما يكفي للقيام به، وقد يكون لديه أكثر من ذلك.

وحين يحتال إنسان فيصل إلى المكان الخفي الخاص بتحريك قوة كامنة، فيضغط عليه ضغطاً يسيراً أو يحركه تحريكاً خفيفاً، فتنفجر بذلك قوة هائلة مدمِّرة أو معمِّرة، أو تتحرك آلات كثيرة ضخمة، فإنّنا ندرك أن هذا الإنسان يملك من قوة الحيلة والمعرفة بمكامن القوة المواضع الخفية لتحريكها قدراً يكافىء العمل الذي قام به، ولا سيما إذا استطاع تكرير عمله في مختلف الظروف، وعند الحاجة، وحسب الغاية المقصودة، وتأكدنا أنَّ عمله لم يكن حركة عشوائية.

إذن: فالعمل الذي يحتاج إنجازه إلى قوة يدل إنجازه على أن من قام به لو لم يملك هذه القوة لما استطاع أن ينجزه، ومتى اجتمعت صفات القدرة والعلم وحسن الاختيار في موصوف واحد كان ذلك دليلاً على أن هذا الموصوف حيٌّ لا ميت، ولا مادة عديمة

الحياة؛ لأن كل مادة عديمة الحياة لا تكون عليمة ذات إرادة حرة وحسن اختيار.

وحين أرشد القرآن الناس فلفت أنظارهم إلى ظواهر هذا الكون المملوء بالمتقنات العجيبة، والمحكمات الغريبة، والمصنوعات البديعة الدقيقة، التي لم توجد أنفسها بأنفسها، ولا تتحكم بذواتها بعد وجودها، فقد دلَّهم بذلك على أن متقنها ومحكمها ومبدعها وصانعها قدير عليم حكيم حيّ.

وقد دلَّهم على أنه يرعى كونه بالتدبير الحكيم دائماً، وذلك لأن تصاريف أحداث هذا الكون وحركاته الدائمة مقرونة بالحكمة والعناية، لذلك فلا بدَّ أن يكون مدبّراً لأمره، ولا يملك تدبير أمر هذا الكون الكبير إلا محيط به حكمةً وعلماً وقدرةً، ومهيمن عليه مسيطر على كل صغير وكبير فيه.

ومن كان كذلك كان هو المالك له، وهو الملك الحاكم على الأحياء فيه، وبهذا الترابط الفكري المقتبس من دراسة ظواهر هذا الكون، علمنا أن وراء هذه الظواهر خالقاً، قديراً عليماً، حكيماً، مهيمناً مدبِّراً للأمر كله، مالكاً مَلِكاً، يفعل ما يشاء ويختار، لطيفاً، خبيراً سميعاً، بصيراً، رحيماً.

وهكذا إلى سائر صفات الكمال لله تبارك وتعالى، ثم ننظر إلى ما أثبت سبحانه لنفسه من صفات، وما نفى عن نفسه من صفات، فيما أنزل علينا، فنثبت له ما أثبت، وننفي عنه ما نفى، وننزهه عن مشابهة خلقه، ونقول: ليس كمثله شيء.

* * *

المقولة التاسعة

توحيد الربوبية وتوحيد الإلهيّة

دراسة ظواهر الكون دلَّت على أن هذا الكون خاضع لقوانين واحدة، وأنه سائر ضمن خطط من الخلق لا تفاوت فيها.

فالقوانين السائدة في الأرض هي القوانين السائدة في السماء، ثم إن الأرض وما فيها جزء مترابط مع سائر ما في الكون، فهي خاضعة لنظام شامل مسيطر على الكون كله.

وهذا يدل على أن الخالق المهيمن على الكون كله واحد، ولو أنه كان متعدداً لتباينت قوانين الكون، ولتعارضت، ولانتهى الأمر بها إلى التصادم والفساد في الكون، هذا الدليل العقلي الدال على أن الرب الخالق لهذا الكون واحد قد نبهنا القرآن الكريم عليه بقول الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وبهذا ثبت لدينا عقلياً أن الرب الخالق المنعم الرازق المحيي المميت الذي يبتلي ثم يحاسب ثم يجازي واحد لا شريك له.

وهذا يثبت لنا عقلياً عن طريق اللزوم المنطقي أن من كان هو الرب ولا شريك له في ربوبيته كان هو المستحق وحده للعبادة، فلا يصح أن يُعْبَد غيره، وكل عبادة لغيره شرك به، وإفراد الله بعبادته دون سواه هو ما يطلق عليه لفظ (توحيد الألوهية) وتفرّدُ الله باستحقاق العبادة هو ما يطلق عليه لفظ: (توحيد الإلٰهيّة).

وبهذا يتم الربط بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلٰهيّة للّه عزّ وجلّ، وبما أن الشرك في العبادة يستلزم في مضمونه عدم توحيد الربوبية، اقتضت حكمة تصحيح عقيدة المشركين الرجوع بهم إلى الأدلة التي تثبت وجود الله وتفرده بالربوبية، لتكون هذه العقيدة الصحيحة هي الأساس لتصحيح الفقرة الثانية من العقيدة الإسلامية، وهي فقرة توحيد الألوهية، أي إفراد الله الخالق وحده بالعبادة، وإثبات أن أيّة عبادة لغيره شرك به جل وعلا، وكفرٌ بحق إفراده بالإلٰهيَّة، أي: بكونه هو وحده الإلٰه

المستحق للعبادة، وعبادة غير الله تستلزم التشكك في تفرده بالربوبية وخصائصها في الخلق والرزق والحياة والموت والنفع والضر، أو أنّه أذن سبحانه بعبادة غيره معه، وهذا افتراءٌ عليه، ومنه ادّعاء بعض المشركين بأنّهم إنّما يعبدون آلهتهم ليقرّبوهم إلى الله زلفى.

ومن توحيد الألوهية عبادة الله وحده بما أمرنا أن نعبده به، على الشكل الذي أمرنا به، دون أن نخترع من عند أنفسنا عبادةً لم يأذن بها.

ومن توحيد الألوهية أن نُحكِّم شريعة الله لنا في كلِّ أعمالنا الفردية والجماعية، لأن الله سبحانه له الخلق، ومن له الخلق فله الأمر، وعبادةُ الله تكون بطاعته فيما أمرنا به، وفيما نهانا عنه، وكلّ حكم على خلاف حكم الله يمثل استنكافاً عن طاعته في ذلك الحكم.

فإذا كان ذلك طاعة لغير الله تعالى فهو شرك بالله فيما هو من خصائص إلهيته، وهو يمثل نقضاً جزئياً لتوحيد الألوهية، وإذا كان ذلك اتّباعاً لهوى النفس فهو لون من ألوان عبادة الهوى.

والصدق في توحيد الألوهية يُلزِم باتباع شريعة الله

في كلّ الأحكام، سواء أكانت أحكام عبادات محضة، أم كانت أحكام سلوك إنساني فرديّ أو اجتماعي.

الربوبية: اسم مصوغ للدّلالة على الصفات التي يتصف بها الرَّبُّ الخالق جلّ جلاله، أي: الصفات التي تفهم من كونه رَبّاً، وصفات ربوبية الربّ جلّ وعلا تدلّ عليها أسماء الله الحسنىَ ذوات التعلّق بشيء من الكون ضمن مفهوم من مفاهيم الخلق أو التربية، ومنها:

الخالق، الرازق، الرحمن، الرحيم، الملك، المهيمن، العزيز، الجبار، البارىء، المصور، العفوّ، الغفار، القهار، الوهاب، الفتاح، العليم، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعزّ، المذل» ونحوها.

الإلٰهيّة: استحقاق المعبود أن يكون معبوداً، ولا أحد يستحق أن يكون معبوداً إلاّ الرّب جل وعلا، فهو وحده الإله بحقّ.

الألوهيّة: هي العبادة، بحق أو بباطل، والألوهية بحقّ لا تكون إلاّ لله عزّ وجل، فلا إلٰه إلاّ الله.



* * *

الفصل الثاني

الإيمان باليوم الآخر

الدليلُ العقلي يهدي إلى الإيمان بالجزاء الأخرويّ

حكمة الخالق العليم القادر المنزّه عن كل نقص تقتضي أن يختار أكمل الصور الممكنة من الخلق والتدبير، وحين نلاحظ هذا من عناصر إيماننا بالله، لا بدّ أن نهتدي إلى أن حكمة الله تأبى أن يخلق هذا الكون عبثاً، وتأبى أن يخلق الإنسان بصفاته التي هو عليها باطلاً، وأن تكون نهاية قصة خلق الإنسان محدودة بظروف هذه الحياة الدنيا، بكل ما نشاهد فيها من أعمال خير وشر تصدر عن هذا الإنسان أفراداً وجماعات.

كان هذا هو المفتاح الذي فتح للفكر الحصيف باب الإيمان بالجزاء، ثم إن الإيمان بالجزاء مع ملاحظة واقع هذه الحياة الدنيا يهدي إلى أن وراء هذه الحياة حياةً أخرى، لا بد من قدومها ليتم فيها الجزاء الأمثل، وفق ما تقتضيه حكمة الخالق العظيم.

وهكذا يظهر لنا بتسلسل البناء الفكري المنطقيّ ركن الإيمان باليوم الآخر، والدار الآخرة. وهو أحد أركان الإيمان الأساسية التي تألفت منها القاعدة الإيمانية في الإسلام، وفي كل الأديان الربّانية الحقّ التي لم يدخل إليها التحريف والتغيير والتشويه.

ونظراً إلى أن عقيدة الجزاء الرباني، الذي اهتدى الفكر إلى ضرورة يوم آخر لتنفيذه، غير يوم الحياة الدنيا، عقيدةٌ تأتي في الفكر عقب الإيمان بالله الخالق العليم الحكيم القادر، وجدنا نصوصاً قرآنية كثيرة قد اقترن فيها الكلام على الإيمان باليوم الآخر بالكلام على الإيمان بالله، فالتلازم الفكري ينتقل إلى فكرة الجزاء الرباني عقب إيمان الإنسان بالله خالقه ومدبّر أمره في هذه الحياة الدنيا، وقد علمنا أن فكرة الجزاء الرباني مع ملاحظة واقع هذه الحياة الدنيا تهدي مباشرة إلى إثبات الآخرة، انسجاماً مع ما توجيه حكمة الخالق المقرونة بواسع علمه وكامل قدرته وتنزهه عن كل نقص.

فالإيمان بالجزاء الرباني الأمثل، وبيوم هذا الجزاء الأمثل، وبما يستتبع من حياة أخرى ودار أخرى، هو الركن الاعتقادي الإيماني الذي يقع في الدرجة الثانية بعد الإيمان بالله وبكمال صفاته.

ونستطيع أن نلخص السلسلة الفكرية الإيمانية التي تهدي الفكر إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر على الوجه التالي:

أولاً: دراسة الكون والحياة والإنسان تهدي إلى الإيمان بالخالق العظيم القادر العليم العدل الحكيم.

ثانياً: دراسة الغاية من الخلق التي تهدي إليها ملاحظة الكون وأحداثه الكبرى وقوانينه الصارمة وسننه الثابتة لا تدع مجالاً لتصور اللعب واللهو والعبث في أي حدث من أحداثه، بل كل ما فيه جدّ، لا هزل يُصَاحبه ولا عبث يخالطه.

ثالثاً: دراسة العلاقات الأخلاقية والتكوينية بين الخالق الحكيم والإنسان المدرك المريد ذي الغرائز والأهواء والشهوات والذي يستطيع أن يتوجه لفعل الخير والطاعة أو فعل الشر والمعصية، تهدي إلى أن الإنسان خُلق في هذه الحياة الدنيا للامتحان، والامتحان يستلزم الجزاء في جدية قوانين الوجود وسننه الثابتة، وفي مقتضيات حكمة الخالق وعلمه وقدرته.

رابعاً: دراسة الظواهر الجزائية في نطاق هذا الكون المدروس المشاهد، تدلّ على أنّ كمال مقتضيات العدل

وكمال مقتضيات الحكمة لم يتحققا فيه، وحين نلاحظ هذا ونلاحظ معه صفات الخالق العظيمة، التي منها العدل والحكمة والعلم والقدرة، ونلاحظ قوانينه الصارمة وسننه الثابتة في الكون، فإننا نهتدي فكرياً إلى أن حياة أخرى قد رُتِّبت في برنامج الوجود الكبير لإقامة كمال العدل وكمال الحكمة فيها، وفيها يتم تحقيق الصورة المثلى للجزاء الرباني.

بهذه الدراسة النظرية الفكرية المتسلسلة على هذا الوجه، والمدَعَّمَة بالأدلة العقلية، المستندة إلى دراسة ظواهر هذا الكون المشاهد، استطعنا أن نهتدي إلى ضرورة اليوم الآخر وإلى الإيمان به.

وهذا ما نَبَّهت النصوص القرآنية عليه، وأعطت المفاتيح للوصول إليه.

١ ـ فمنها قولُ الله تعالى في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

فهذا النص يكشف لنا، أنه لو لم يكن وراء هذه

الحياة التي تنتهي بالموت حياةٌ أخرى تكون فيها الرجعة إلى الله، للحساب والجزاء، وإقامة محكمة العدل والفضل الإلهية، لكانت عملية الخلق ضرباً من العبث، والله تبارك وتعالى منّزه عنه، فلا يكون في شيء من أفعاله وأحكامه وأوامره ونواهيه وشرائعه هذا العبث، بل لا بد في كل ذلك من غايات حكيمة تحدّدها إرادة الخالق المستندة إلى علمه المحيط بكل شيء.

والجدّيّة الصارمة هي المظهر البارز في كلّ أحداث الكون وقوانينه وسننه، وإشارة إلى كون الله منزّهاً عن العبث في عمليات الخلق التي يجريها، قال الله تعالى في هذا النص:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾.

ولما كان احتمال العبث احتمالاً مرفوضاً عقلياً كان لا بد من وجود حياة أخرى، تظهر فيها تطبيقات الغاية من الحياة الأولى، وهذه الحياة لا بد أن تكون مقدَّرة في برنامج المقادير الربانية، إنَّ الله هو الملك الحق لا إله إلا هو، وبهذا نلاحظ أن هذا النص قد أعطى الفكر الإنساني مفتاح البحث النظري الموصل إلى هذه الحقيقة.

٢ ـ ومنها قوله تعالى في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ تزول):

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

من الواضح أن ظروف هذه الحياة التي نعيشها قد تسمح للمجرمين بأن يعيشوا فيها عيشاً رغداً ناعماً، يصيبون فيه المال والجاه والسلطان واللذات، كما قد تسمح للمسلمين أهل الاستقامة بمثل ذلك.

وقد تسمح بأن يتمكن الفاجر من قتل التّقي، وظلمه وتعذيبه، واستلاب ماله، والعدوان عليه في أرضه، أو عرضه، وقد لا يلقى الفاجر جزاءً معجلاً على فجوره، بل قد يمهل وتأتيه منيته دون أن ينال شيئاً من جزائه، فلولا أن حياة أخرى غير هذه الحياة، قد أُعدَّت في برنامج المقادير الربانية لإقامة الجزاء الذي توجبه حكمة الخالق، لكانت النتيجة الحكم على الخالق بأنّه قد رضي بأن يجعل المسلمين كالمجرمين سواء محياهم ومماتهم، وهذا يتنافى مع أصول العدل والحكمة الرّبانيّة، ولذلك فهو مرفوض عقلاً.

ولمّا كان هذا الاحتمال مرفوضاً فإن الاحتمال المقابل له، وهو وجود الحياة الأخرى التي يتحقق فيها

التمييز بين المسلمين والمجرمين، هو الأمر الحتمي الذي لا مناص من اللجوء إلى إدراكه عقليّاً والتسليم به عقيدة، وهو الاحتمال الذي قررته النصوص الدينية الصحيحة الصريحة وأخبرت به.

٣ ـ ومنها أيضاً قوله الله تعالى في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٤ ـ ومنها قول الله تعالى في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا ما هدى إليه الفكر السليم، ودلّت عليه النصوص، ولكن كيف يكون هذا اليوم الآخر وعلى أية صورة؟ إن الدراسة النظرية لا تسمح لنا بالتحديد، وذلك لأن الاحتمالات النظرية كثيرة جداً، ولا سبيل إلى ترجيح بعضها على بعض بعقولنا، ومن أجل ذلك

كان لا بد من أن نلتمس مفاهيم النصوص الدينية الثابتة لتخبرنا بذلك.

وليس لنا أن نتخيل صورة من عند أنفسنا أو أن نضيف صوراً من عند أنفسنا إلى ما جاءت به النصوص الدينية الثابتة في القرآن الكريم وفي أقوال الرسول صلوات الله عليه.

الإيمان بالآخرة ضرورة أخلاقية:

ممَّا سبق يتضح لنا أن الإيمان بالآخرة ضرورة أخلاقية تقتضيها مفاهيم العدل الإلهي والفضل الإلهي، ومعلوم أن العدل الإلهي والفضل الإلهي من الأسس المرتبطة جذرياً بعقيدة الإيمان بالله تعالى وبأسمائه الحسنى وصفاته العظمى.

الإيمان بالآخرة مبدأ ضروري لسعادة الجماعة الإنسانية:

وإذا نظرنا إلى مشكلة السلوك الإنساني وجدنا أن سعادة الجماعة الإنسانية مرهونة بضوابط سلوك الإنسان، وحينما نبحث عن الضوابط التي يمكن أن تضبط سلوكه نجدها ضوابط ضعيفة وناقصة إلا ضابطاً واحداً هو مراقبة الله والخوف من عقابه يوم القيامة (يوم الدين).

وبهذا تغدو قضية الإيمان باليوم الآخر ضرورة إنسانية لحلٍ مشكلة الجنوح الإنساني، ولمنح المجتمعات الإنسانية أفضل صورة ممكنة من السعادة الجماعية في ظروف هذه الحياة، ولدفع الإنسان إلى فعل الخير والارتقاء في سُلَّم الفضائل الفردية والجماعية.

* * *

الفصل الثالث

الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

وفيه ست مقولات:

المقولة الأولى: الأسس الفكرية لقضية الإيمان بالأنبياء والرسل.

المقولة الثانية: الرسل خلاصة مختارة من الناس.

المقولة الثالثة: حاجة الناس إلى إرسال رسل إليهم.

المقولة الرابعة: وحدة الرسالات السماوية في أسسها وأصولها.

المقولة الخامسة: تكامل الرسالات وختمها برسالة محمد ﷺ.

المقولة السادسة: دلائل صدق رسالة الرسول ﷺ.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

المقولة الأولى

الأسس الفكرية لقضية الإيمان بالأنبياء والرسل

أثبت لنا البحث العلميّ المستفيض أن لهذا الكون رباً خالقاً قادراً عليماً حكيماً سميعاً بصيراً، وأنه خلقنا ليبلونا، وأثبتت لنا الدراسة المنطقية المؤيدة بالشواهد الواقعية أن حكمة الخالق القادر العليم تأبى أن ينتهي وجود الإنسان بانتهاء ظروف هذه الحياة المدروسة المشاهدة، وأنه لا بد من حياة أخرى يتم فيها الجزاء الأمثل.

ولكن الامتحان الصحيح لا بدَّ فيه من بيان موادّه، التي يجري الامتحان فيها، ولا بدَّ فيه من تحديد مسؤولية الممتَحَن وإبلاغه هذه المسؤولية، وهنا نتساءل: كيف يتم كل ذلك بين الخالق والمخلوق؟

هذا السؤال هو الذي أجابت عنه حكمة الخالق

باختيار طريق إرسال الرسل من البشر، ليبلّغوا عن الله ما يأمرهم به وما ينهاهم عنه، وما يختار لهم من تشريع لحياتهم، حتى ينالوا بالطاعة رضاه، ويظفروا بجنته، ويسلموا بها من سخطه، والوقوع بموجبات عقابه.

ولا نعرف قيمة اختيار هذا الطريق للتبليغ عن الله ما لم نمرّ في تصورنا على الاحتمالات الأخرى التي قد تخطر في البال، أو قد يطالب بها المتعنتون.

لدى الفكر عدّة احتمالات:

١ ـ فإما أن يظهر الله الخالق لعباده ويكلفهم شرائعه مباشرة، ولكن هذا الاحتمال منافٍ لحكمة الامتحان، لأن أول مواد الامتحان أن يؤمن العباد بربهم عن طريق عقولهم، ومشاعر قلوبهم، دون أن يشاهدوه بحواسهم، فلو ظهر لهم فرأوه لما استطاع معاند مستكبر فيهم أن يكفر بوجوده تبارك وتعالى ولو أراد ذلك. ولهذا كانت أولى خطوات التكليف في مجال امتحان العباد الإيمان بالغيب. قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

٢ ـ وإمّا أن يوحي الله لكل عبد من عباده فيبلغه تبليغاً مباشراً شرائعه، وهذا يتنافى مع الحكمة من الابتلاء والامتحان العام للجماعات الإنسانية.

٣ ـ وإما أن ينزل الله ملائكته للناس يراهم الناس ويمشون بينهم، ويقوم هؤلاء الملائكة بوظيفة التبليغ، ولكن هذا الاحتمال ليس هو الاحتمال الأفضل للتبليغ، وذلك لأن طبيعة الملائكة غير طبيعة البشر، وخصائصهم غير خصائصهم، فإما أن يظهروا على صفة الناس وحينئذٍ لا يستطيع الناس أن يميزوهم، وسيقولون: هؤلاء بشر مثلنا، وهذا ما أشار إليه القرآن بقول الله تعالى في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول): ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ وإما أن يظهروا على غير صفة البشر، وفي هذه الحالة لا يمكن للملائكة أن يجعلوا أنفسهم قدوة حسنة في سلوكهم للناس، لاختلاف الطبيعة، وسيقول المخالفون العصاة: لو كان للملائكة مثل طبيعتنا لعصَوا مثلنا، وفي هذه الحالة لا يكونون حجة في سلوكهم على الناس، يضاف إلى ذلك أنهم لو ظهروا على صورتهم ونزلوا بين الناس مبلّغين لكانت الحكمة تقضي بأن يُقضى على المخالفين عند أول مُدَّة

يخالفون فيها ويكفرون، لأنه لا معنى للإمهال بعد ظهور قسم من آيات الله الكبرى، بإنزال ملائكته يبلِّغون شرائع الله لعباده.

٤ ـ فلم يبق إلا احتمال إرسال رسل مختارين مصطفين من البشر، ليكونوا دعاة إلى الله، وقدوة حسنة لهم، وهذا هو الاحتمال الأحكم الأفضل المختار.

وبهذه الوسيلة تتحقق أحسن صور التبليغ العام، لأحسن صور الامتحان الشامل لكل من تتوافر لديه شروط التكليف من الناس.

ويتعلل الفارُّون من قانون الابتلاء وما يستتبع من جزاء بتعلاَّت مختلفات، فيطالبون بأن يروا الله جهرة، أو بأن يُنزل الله عليهم من السماء صحفاً منشرة بأسمائهم، أو بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء يقرؤونه جميعاً، أو بأن ينزل عليهم الملائكة يبلِّغونهم شرائع الله، أو يطالبون الرسول بمطالب متعنتة، أو يَعْتَرضون على بشرية الرسول، أو يعترضون على شخصه، أو يفرضون عليه شروطاً في شريعة الله، بأن يضيف إليها أن يحذف منها إلى غير ذلك من أمور.

وقد ناقشهم القرآن في كل ذلك مناقشات منطقية

وألزمهم فيها بالحجة، وقطع بذلك أعذارهم، وكشف القرآن عن دوافع التكذيب بالرسول، وأبان أنها ترجع إلى عدة عقبات نفسية، منها الأمور الأربعة التالية:

الأول: الاستكبار.

الثاني: واقع العتو الكبير الذي هم فيه، إذ لا يريدون التنازل عما هم فيه من ظلم وعدوان وفجور، فهي بالنسبة إليهم امتيازات طبقية، وانطلاق لأهوائهم وشهواتهم دون ضابط.

الثالث: العصبيات العمياء.

الرابع: الحسد الذميم الصارف عن قبول الحق.

* * *

المقولة الثانية

الرسل خلاصة مختارة من الناس

لمَّا كانت رسالةُ هداية الخلق وإمامتهم في فعل الخير وترك الشر، وقيادتهم إلى مواطن رضا الله وموجباتِ رحمته وعظيم ثوابه ودخولِ جنته، أعظمَ الرسالات، ولما كانت شروط المصطفى لها أعظمَ الشروط الإنسانية، لزم أن يكون الإنسان الذي يصطفى لها خيرَ الناس وأفضلهم، وأعلاهم خصائص وفضائل.

ولمَّا كان الله جل وعلا عليماً بكل شيء، خبيراً بعباده، محيطاً بما في علانياتهم وسرائرهم، حكيماً فيما يصطفي ويختار، كان لا بد أن يصطفي ويختار لأعظم الرسالات أفضل عباده.

فمن الواجب في الواقع إذن أن يكون رسل الله للناس صفوة عباده منهم، وأن يكون الرسول في قومه أعظم إنسان مؤهل فيهم لحمل رسالة ربه إليهم، ولا

يمنع هذا من تفاضل الرسل فيما بينهم، فإنّ قمة الكمال الإنساني مرتبةٌ ذات درجات بعضها أعلى من بعض.

لكل ذلك نجد أن القرآن يعرض علينا ما اقتضته حكمة الله من اصطفاء خيرة خلقه لرسالاته للناس، التي هي أعظم الرسالات في الواقع الإنساني، وجاء التعبير عنه بألفاظ الاصطفاء، والاجتباء، والاختيار.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

* * *

المقولة الثالثة

حاجة الناس إلى إرسال رسل إليهم

يمكن تلخيص حاجة الناس إلى رسل مبشرين ومنذرين بما يلي:

أولاً: لو ترك الناس لأنفسهم من غير تنبيه وإرشاد لظلوا في الضلال يتيهون، وذلك بسبب اندفاعهم وراء غرائزهم وشهواتهم وأنانيّاتِهِم، ولظلوا يتخبطون في الظلمات بأوحال المفهومات الباطلة، والأخلاق الفاسدة، والعادات المنحرفة، والتقاليد السيئة الملاحظة في الإنسان المتخلف عن ركب الحضارة والعلم والكمال الإنساني.

وهذا يكشف عن حاجتهم إلى رسل ينبهونهم ويرشدونهم، ولذلك أرسل الله لهم الرسل بحكمته، فلم يبقَ لهم عذر به يعتذرون.

ثانياً: إن الناس بحسب التكوين القويم الذي فطرهم الله عليه قد خلقهم الله ليختبر إراداتهم، وليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ولولا أنْ أرسل الله إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، لكان لهم عذر وحجة يحتجون بها عند ربهم يوم القيامة، لدى محاسبتهم على كفرهم وظلمهم وعدوانهم وجنوحهم، بأنه لم يرسل لهم من ينبههم ويدلهم على الله، ويبين لهم الفضائل ويحذرهم من الرذائل، ولقالوا لربهم يوم الحساب: لو أرسلت إلينا رسولاً لكنَّا اتبعناه ولم نخالف له أمراً.

وهذا أيضاً يكشف عن حاجة الناس إلى رسل ينبهونهم ويعلمونهم ويرشدونهم، ولذلك أرسل الله لهم الرُّسل بحكمته، فلم يبق لهم عذر به يعتذرون.

ثالثاً: الناس لا يستطيعون بأنفسهم أن يتوصلوا إلى معرفة جميع الخيرات والفضائل الإنسانية والكمالات الخلقية ويتفقوا عليها، لأن عوامل غرائزهم وشهواتهم وأهوائهم وأنانيّاتهم تصرفهم عن الحق والخير، فتزين لهم الباطل والشر. وهذا يكشف لنا أيضاً عن حاجة الناس إلى رسل من عند الله معلِّمين ومبشِّرين ومنذرين، ولذلك أرسل لهم الرسل بحكمته فلم يبق لهم عذر به يعتذرون.

رابعاً: إن كثيراً من الحقائق التي لا بد منها لإصلاح الناس وتقويم سلوكهم في الحياة لا يمكن للعقل البشري أن يتعرف عليها بنفسه ضمن حدود الوسائل الإنسانية العادية، ومن هذه الحقائق الدار الآخرة، والحياة المادية فيها، والبعث والحشر والجنة والنار وما فيهما.

فكان لا بدَّ من أن يتعرف الناس عليها عن طريق المتصلين بالوحي، المطَّلعين على ما يطلعهم الله عليه مما في الغيبوب، وهؤلاء هم الرسل.

ولذلك أرسل الله للناس الرسل بحكمته ليبينوا لهم جملة من حقائق اليوم الآخر وما فيه من جزاء بالثواب أو بالعقاب.

خامساً: الناس بحاجة في إصلاح أفرادهم ومجتمعاتهم إلى مصلح مثالي يكون أسوة حسنة لهم.

وشخصية المصلح المثالي يجب أن تتوافر فيها صفات القدوة الحسنة، والعصمة عن الخطأ في المبادىء والعلوم التي يهدي إليها، والعصمة عن الخطأ في الأعمال والأخلاق التي يرشد إليها، ويأمر بها، لأنه لو لم يكن كذلك لكان قدوة سيئة لهم، ولا نقلب مفهوم كلٍّ من الشر والخير.

ولا يمكن أن تتوافر هذه الصفات بحسب الإحصاء

البشري إلا في الرسول المعصوم المؤيد من عند الله بالمعجزات الباهرات والآيات البينات.

ولذلك كان الناس بحاجة إلى قادة من رسل الله، يتحلون بجميع الكمالات الإنسانية، ويكونون الأسوة الحسنة لجميع الناس، ولذلك أرسل الله الرسل المعصومين عن الخطأ في تبليغ الشريعة، وعن المعصية في السلوك.

وقد بين الله حاجة الناس إلى رسل مبشرين ومنذرين بقوله تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول).

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

* * *

المقولة الرابعة

وحدة الرسالات السماوية في أسسها وأصولها

لمَّا كان الرُّسُلُ جميعاً رسلاً للناس المتماثلين في خصائصهم التكوينية، وكانوا مبعوثين من قبل مرسل واحد، كانت الحكمة تقضي بأن تكون رسالتهم واحدة في أصولها وأسسها العامة.

ولذلك نرى أن أسس رسالات رسل الله ومبادىء دعوتهم واحدة، فلا خِلاف في العقائد التي دعوا إليها، ولا خِلاف في روح العبادات التي أمروا بها، كما لا خلاف في مبادىء التعامل المادي والأخلاقي والسياسي التي نادَوا بها.

وما نلاحظه الآن من البون الشاسع في المعتقدات بين أتباع ديانات ربّانية صحيحة الأصل فإنما ذلك من التحريف والتبديل الذي دخل إلى مبادىء هذه الديانات

من أتباع ذوي غايات سيئة حرَّفوا وبدَّلوا وفق شهواتهم وأغراضهم الخاصة، ولو أن هذه الديانات السابقة بقيت على أصولها من غير تحريف لالتقى متّبعوها بصدق مع المسلمين التقاءً تاماً، ولكان أتباع الديانات الربانية كلهم أتباع ملة حنيفية واحدة تعمل بالمنهاج التشريعي الذي ختم الله به رسالات السماء، وأنزله على محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ولئن كنا نرى بعض اختلاف في أحكام الشرائع الربانية من رسالة إلى أخرى في الحلال والحرام، وفي صور العبادات بحسب أصولها الصحيحة، فإنما يرجع ذلك إلى الحكمة الدقيقة في موافقة وضع كل أمة لأساليب تربيتها وإصلاحها، وامتحان طاعتها وامتثالها لأوامر الله ونواهيه، وذلك بالنظر إلى بيئة تلك الأمم، ومستوى عاداتها وتقاليدها وثقافاتها ومفاهيمها الاجتماعية، وبالنظر إلى إمكانية تطورها من وضع إلى آخر بحسب مستوى تخلفها الفكري والاجتماعي والخلقي.

وقد اختار الله لخاتمة رسالاته أفضل الشرائع وأتمها، وألزم الناس باتّباعها.

* * *

المقولة الخامسة

تكامل الرسالات وختمها برسالة محمد ﷺ

إن حكمة الله العالية قد راعت في تنزيل الرسالات تطور الأمم في الأرض، من أمم بدائية محدودة العلاقات الاجتماعية، إلى أمم متقدمة في سُلَّم المدنية والحضارة واتساع العلاقات.

ولما وصلت البشرية إلى المرحلة التي استكملت فيها نسبة من التطور تؤهلها لأن تكون أمة واحدة تعمل برسالة رسول واحد أرسل الله رسوله محمداً صلوات الله عليه، عربيَّ النسب واللسان، إنسانيَّ الدعوة، عالميَّ الدين، برسالة هي خاتمة الرسالات الربانية والجامعة لجميع شرائع الله للناس.

والتي تضمن مصالحهم على شكل أكمل من أي نظام أو تشريع، كما تضمن سعادتهم على وجه أسمى

من كل سعادة يمكن أن يحققها أي نظام أو تشريع. وقد تكفل الله سبحانه لهذه الرسالة بالحفظ والتأييد، وأنزل لها كتاباً مبيناً غير ذي عوج، وهو القرآن.

وقد شهد الله لرسالة محمد ﷺ بأنها عامة شاملة للناس أجمعين، فقال تعالى في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ولـمَّا كانت عامة شاملة محفوظة بحفظ الله صحَّ أن يختم الله بها رسالاته للناس، لذلك أعلن الله ختم النبوات والرسالات بنبوة نبيه (محمد) الذي أرسله للناس كافة، قال الله تعالى في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾.

وختم الرسالات بهذا الدين اقتضى أن ينزله الله تاماً مكملاً وفي ذلك قال الله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿. . . ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ . . .﴾(٣).

* * *

المقولة السادسة

دلائل صدق رسالة الرسول ﷺ

ليس من المفروض أن نصدق كل من يدَّعي النبوة والرسالة، فقد يكون المدَّعي متنبئاً كذاباً، ولكن حينما تقترن دعواه بما يدل على صدقه فإنه يجب حينئذ تصديقه، ومن كذَّبه بعد وضوح الدلائل الدالة على صدقه كان جاحداً للحق كافراً برسول ربه.

فمتى ثبت بالدلائل الكافيات، أن واحداً من البشر نبي من أنبياء الله ورسول من رسله، بعثه ليبلغ عنه ما أمره بتبليغه للناس، وجب عليهم الإيمان به، ووجب عليهم اتباعه، والائتمار بأمره، والانتهاء عما نهى عنه، في حدود شروط رسالته وشروط العمل بها.

ونستطيع أن نستدل على صدق الرسول في دعواه

النبوة أو الرسالة ببعض الآيات والدلائل البينات، التي ترجع إلى أحد الأمور التالية:

الأمر الأول:

جوهر الرسالة التي يحملها من يدَّعي النبوة أو الرسالة وكونها حقاً لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وكونها داعية إلى توحيد الله وعبادته، والالتزام بالحق والخير ومختلف الكمالات الإنسانية.

الأمر الثاني:

شخصية الرسول في أخلاقه، وأعماله، وأقواله، ومؤهلاته الذاتية، وأسلوب دعوته، وسياسته، وقيادته، التي تتسم بسمات الكمال الإنساني، وتمتاز عن كل عظماء الناس المتفوقين ببعض الخصائص.

الأمر الثالث:

إخبار الرسل السابقين ببعض صفاته الخاصة، وانطباقها عليه، ويطلق على هذا الأمر اسم (البشارات) التي تأتي على ألسنة الرسل السابقين.

الأمر الرابع:

تأييد الله له بالآيات التي هي من خوارق العادات، والتي لا يجري الله أمثالها إلا لرسول من رسله، ونبي

من أنبيائه، أو لتابع من أتباع الرسول يعلن إيمانه به، وعندئذ تكون في حقيقتها من آيات صدق الرسول.

ويطلق على هذا النوع من الآيات اسم (المعجزات) كمعجزات إبراهيم، وموسى، وصالح، وعيسى، ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الأمر الخامس:

تأييد الله له بالنصر، وتحقيق ما ذكر الرسول أن الله قد وعده به، وتصديقه في كل ما أخبر به عن ربه، بما يمدّه الله به من وسائل التوفيق والفتح المبين، ونحو ذلك من الأمارات التي تورث قناعة كافية بصدقه، وبأنه رسول الله حقاً.

الأمر السادس:

تحقق صدق أخباره التي يخبر بها عن الغيب، سواء أكانت ممّا سيحدث في المستقبل، أم مما هو وراء مدى قدرات المعرفة الإنسانية بحسب الوسائل المسخرة لأهل زمانه، مما هو موجود فعلاً في الأرض أو في السماء، أو مما كان قد حدث في الماضي دون أن يكون فيه خبر مأثور أو شاهد ظاهر من الأرض يدل عليه.

الأمر السابع:

التزامه المثالي بمضمون الرسالة التي يدعو الناس إليها.

وقد أعطى الله كل رسول من الآيات التي ترجع إلى هذه الأمور كلّها أو بعضها ما يكفي لإقناع الناس بأنه رسول صادق، وبأنه يبلِّغ عن ربه حقاً.

وقد اجتمعت كل هذه الأمور لسيدنا محمد خاتم المرسلين وخاتم النبيين، وكانت معجزة القرآن أعظم آياته الخالدة الباقية مدى الدهر.

* * *

الفصل الرابع

الإيمان بالكتب المنزلة على رسل الله

وفيه ثلاث فقرات:

١ ـ الإيمان بالكتب الربانية.

٢ ـ حاجة الناس إلى كتب ربّانيّة.

٣ ـ الكتب السماوية التي يجب أن نؤمن بها.

١ ـ الإِيمان بالكتب الرّبانية:

يتصل بالإيمان بالله ورسله الإيمان بما أنزل الله من كتاب، فلا يتم الإيمان بالرسول ما لم يتم تصديقه في كل ما يبلِّغه ويخبر به عن ربِّه، ومن ذلك النصوص القولية المنزلة من عند الله، وما اشتملت عليه من بيانات ودلالات وأخبار ووصايا وأحكام وأوامر ونواهي.

فمن أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بالكتب السماوية التي أوحى الله بها إلى رسله، قال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾.

إن عقيدة الإيمان بالله لا تنفك عن الإيمان بكتبه، وذلك لأن من مقتضى الإيمان بالله الإيمان بالرسل المؤيدين من عند الله بالمعجزات، ومن مقتضى الإيمان

بالرسل تصديقهم في كل ما يبلِّغون عن الله تعالى، ومن ذلك الكتب التي ينزلها عليهم.

٢ ـ حاجة الناس إلى كتب ربّانية:

تظهر لنا حاجة الناس إلى كتب ربَّانية تكون فيهم بمثابة دستور يرجعون إليه ويهتدون بهديه إذا لاحظنا الأمور التالية:

الأول:

أن الكتاب الرّباني المنزّل على الرسل هو المرجع لأمته مهما تعاقبت العصور، فيرجعون إليه في تحديد عقائد الدين، وأسسه ومبادئه، وغاياته، ويرجعون إليه في التعرف على أحكام شريعة الله لهم، واستبانة الواجبات التي يأمرهم بها. والمحرّمات التي ينهاهم عنها، والفضائل والكمالات التي يحثهم عليها ويندبهم إليها.

ويرجعون إليه أيضاً ليطالعوا مواعظه، ونصائحه، وأمثاله وآدابه، وما تتضمنه من بشائر ونذر، ووعدٍ ووعيد، وسائر الوسائل والأساليب التربوية المختلفة، الهادية إلى صراط الله المستقيم.

ويرجع إليه أيضاً المجتهدون من العلماء، ليستنبطوا

من نصوصه المختلفة الأحكام الشرعية لكل ما يجدّ في حياة الناس، وذلك حينما لا يتهيأ لهم الرجوع إلى الرسول مباشرة لبعدهم عنه في المكان أو في الزمان.

الثاني:

أن الكتاب الرباني المنزّل على الرسول هو الحكم العدل لأمته في كل ما يختلفون فيه ممّا تتناوله أحكام شريعة الله لهم.

الثالث:

أن الكتاب الرباني المنزّل على الرسول والمحفوظ من بعده من التحريف والتبديل يصون عقائد الدين، وشرائعه، وغاياته، من ضلالات ذوي الأهواء، الذين تُسوّل لهم أنفسهم أن يتلاعبوا بالدين، وينسبوا إليه ما ليس منه، وينحرفوا به عن صراط الله المستقيم، إرضاءً لشهواتهم وغرائزهم.

واستمرار الكتاب الرباني في أمة الرسول من بعده بمثابة استمرار وجود الرسول الذي بلّغه إليهم بين ظهرانيهم، من ناحية بيان أصول الدين وشرائعه وسائر مواعظه وآدابه.

الرابع:

أن استمرار وجود الكتاب الرباني في أمة يحفظ لدعوة الرسول ولرسالته تأثيرها، وسريانها، وقابليتها للاتساع والانتشار، مهما تباعدت الأمكنة أو الأزمنة عن مكان أو زمان نشأة الرسول صاحب الدعوة، ولا سيما حينما تكون دعوة الرسول دعوة عامة شاملة كرسالة محمد صلوات الله عليه.

٣ ـ الكتب السماوية التي يجب أن نؤمن بها:

لقد ثبت لدينا أن الله قد أنزل على مجموعة من رسله عدداً من الكتب السماوية وهذه الكتب منها ما أخبرنا الله به، ومنها ما لم يخبرنا به، فيجب على وجه العموم أن نؤمن بكلّ ما أنزل الله من كتاب، ويجب علينا أن نؤمن بكتب معينة أخبرنا الله بأنه أنزلها، ولكن بحسب أصولها التي أنزلها الله، وهذه الكتب هي الكتب التالية:

١ ـ القرآن:

وهو الكتاب الذي أنزله الله على محمد صلوات الله عليه، وقد حفظه من التحريف والتبديل والزيادة والنقص، فهو بين أيدي الناس كما أنزله الله، ويمتاز القرآن بأنه كتاب معجز، يشهد إعجازه الخالد على أنه

كتاب الله حقاً، وإعجازه يشمل الإعجاز ببيانه وبلاغته، ويشمل الإعجاز بمعانيه ومضامينه الحقّ التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

٢ ـ الإنجيل:

وهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، ولكن لا نجد عند النصارى نسخة صحيحة أصلية ثابتة بالتواتر الصحيح، وما لديهم منه نصوص محرفة مبدَّلة، وفيها زيادات كثيرة وفيها نقص كبير أيضاً عن الأصل الرباني. فنحن نؤمن بكتاب ربّاني اسمه (الإنجيل) أنزله الله على عيسى، لا بالمحرّفات التي يزعم أهل الكتاب أنها هي الإنجيل.

٣ ـ الزبور:

وهو الكتاب الذي أنزله الله على داود، وهو كتاب مواعظ ونصائح وأخلاق، وإثارة مشاعر وجدانية دينية، وقد كان داود عليه السلام يرتّله ترتيلاً غنائياً بصوته الشجي، وكانت الجبال تؤوّب معه رجع صوته النديّ الجميل.

ولكن ليس بين يدي أهل الكتاب نسخة صحيحة متواترة تواتراً صحيحاً للزبور، وغير محرفة ولا مبدلة.

فنحن نؤمن بكتاب رباني اسمه (الزبور) أنزله الله على داود، ولا نؤمن بالمحرفات التي يزعم أهل الكتاب أنها من الزبور.

٤ ـ التوراة:

وهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى، وهو كتاب تشريع وأحكام، وقد تلقَّى موسى بعضه من ربه مكتوباً في ألواح من الحجارة، وعمل به أهل الكتاب حقباً من الدهر، ولكن اليهود بعد ذلك حرّفوا فيه وبدَّلوا، وزادوا ونقصوا، فليس بين أيدي أهل الكتاب نسخة أصلية صحيحة ثابتة من نسخ التوراة لا تبديل فيها ولا تحريف.

فنحن نؤمن بكتاب ربّاني اسمه (التوراة) أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام، ولا نؤمن بالمحرفات التي يزعم أهل الكتاب أنها من التوراة.

٥ ـ صحف إبراهيم:

وقد أخبرنا الله أنه قد أنزل صحفاً على إبراهيم عليه السلام، فنحن نؤمن بهذه الحقيقة، ولكن ليس بين أيدي الناس أصل معروف لهذه الصحف.

إذن فنحن نؤمن بكل كتاب رباني إيماناً إجمالياً،

ونؤمن بالقرآن وحده إيماناً تفصيلياً. لأنه هو الكتاب الوحيد الذي ظل محفوظاً بحفظ الله له، فلم يدخل إليه تغيير ولا تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص، ووصل إلينا بطريق يقيني قاطع لا شك فيه ولا شبهة.

* * *

الفصل الخامس

الإيمان بالملائكة

وفيه فقرتان:

١ ـ الإيمان بالملائكة وحقيقتهم وصفاتهم.

٢ ـ الوحي وأنواعه.

١ ـ الإِيمان بالملائكة وحقيقتهم وصفاتهم:

لما كان من الملائكة سفراء التبليغ بين الله ورسله من البشر، وكانت لهم وظائف يقومون بها ممَّا له علاقة بالناس، كان الإيمان بهم من أركان العقيدة الإسلامية.

قال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

وجاء في كثير من أحاديث الرسول ﷺ النص على أن الإيمان بالملائكة جزء من أركان العقيدة الإسلامية.

حقيقة الملائكة وصفاتهم:

لا نستطيع أن نعرف من حقيقة الملائكة إلا ما جاءنا عن رسول الله ﷺ، لأننا بحسب العادة لا نتصل بهم عن طريق الحس اتصالاً يفيد العلم اليقيني. حتى نكشف حقيقتهم، ونحدد تكوينهم، وحسبنا في العقيدة

أن نقتصر على ما وردت به النصوص، دون أن نجري وراء التكهنات.

فمن صفاتهم الواردة الصفات الآتية:

١ ـ أنهم مخلوقون من نور، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن رسول الله ﷺ قال:

«خُلقت الملاكة من نور، وخلق الجانُّ من مارج من نار، وخلق آدم ممّا وُصف لكم» رواه مسلم.

٢ ـ أن الملائكة قد يكونون معنا ولا نراهم، فقد كان ينزل الملك جبريل عليه السلام بالوحي على رسول الله ﷺ ولا يراه جلساء الرسول.

٣ ـ أن الملائكة قادرون على التمثل بأمثال الأشياء والتشكل بالأشكال الجسمانية، وقد ثبت ذلك بالقرآن والسنة.

فقد كان جبريل يأتي في بعض الأحيان إلى مجلس الرسول على صورة إنسان مجهول، أو على صورة إنسان معلوم، وربما أتى على صورة دحية الكلبي أحد أصحاب الرسول ﷺ.

٤ ـ ومن صفاتهم أن لهم قدرات خارقة.

٥ ـ ومن صفاتهم الطاعة لله، والخوف منه، ومبادرتهم لامتثال أمره، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون.

٦ ـ ومن صفاتهم أنهم مقرّبون إلى الله تعالى ومكرمون.

٧ ـ ومن صفاتهم أن الله جعل منهم الرسل للقيام بتبليغ الشرائع للأنبياء، أو للقيام بمهمات أخرى.

٨ ـ ومن صفاتهم القدرة على الصعود والهبوط بين السماوات والأرض.

٩ ـ ومن صفاتهم أنهم مخلوقون قبل هذه السلالة من البشر. وأن منهم أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع أو أكثر من ذلك.

والملائكة أصناف، ولهم وظائف مختلفة في السماوات والأرض، ومنهم الموكلون ببني آدم، فمنهم من ينفخ الروح في الأجنة، ومنهم ملائكة الموت، ومنهم الحفظة والموكلون بمراقبة أعمال المكلفين وتسجيلها، إلى غير ذلك.

٢ ـ الوحي وأنواعه:

الوحي وسيلة الإعلام الرباني:

لقد اختار الله وسيلة ينزِّل بها على من يصطفي من عباده ما يريد تنزيله عليهم من تكاليف وعلوم إليهة، فتنطبع في هؤلاء المصطَفَين هذه التكاليف والعلوم التي يقذف الله بها إليهم مباشرة أو بوساطة أمر ما انطباعاً جليّاً واضحاً لا يحتمل الشك، وتكون لديهم معارف يقينية مقطوعاً بها.

وذلك كما تنطبع فينا بشكل عام العلوم الْبَدَهيّة التي ندركها بالحسّ، أو تنقدح في أذهاننا بالبديهة العقلية التي نسلِّم بها اضطراراً، دون أن نورد عليها أيّ تساؤل أو اعتراض.

هذه الوسيلة هي الوحي الذي يتلقى به الرسل من الملائكة ويتلقى به الأنبياء والرسل من البشر العلوم الربانية والتكاليف الإلٰهية.

التعريف بالوحي:

الوحي لغة: الإعلام الخفيُّ السريع مهما اختلفت أسباب هذا الإعلام.

والوحي شرعاً: إعلام الله رسولاً من رسله أو نبياً

من أنبيائه ما يشاء من كلام أو معنى بطريقة تفيد النبي أو الرسول العلم اليقيني.

كيف كان ينزل الوحي على الرسول:

١ ـ روى البخاري عن عائشة أنها قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلَق الصبح» وكان ذلك التمهيد لنزول الوحي بصورته الحقيقية، لما له من وقع شديد على النفس البشرية.

٢ ـ ثم أنزل عليه الملك جبريل على غير إلف سابق له، وذلك حين كان الرسول ﷺ في غار حراء يتعبد الله، ويتأمل في ملكوته، قبيل الرسالة، فغطّه ثلاث مرات، وهو يقول له: اقرأ، ويُجيبُه الرسول بقوله: ما أنا بقارىء، فقال له كما جاء في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول): ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾. وكان لهذه المفاجأة بهذه الصورة العنيفة الحازمة حكمة عظيمة، تتضمن هزّ كيان الرسول ﷺ، وإعداده للمهمة العظيمة التي اصطفاه الله لها.

٣ ـ ثم فتر الوحي، واشتد وقع ذلك عليه وكان لذلك حكمة عظيمة تتضمن إشعار الرسول بأن الحادث

الأول لم تجلبه الرياضة الروحية التي كان يمارسها في غار حراء، وإنما هو الاصطفاء الرباني.

٤ ـ ثم جاءه الوحي من دون ترقب، وهو يسير في أحد شعاب مكة، يقول رسول الله ﷺ:

«بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا بِالْمَلَكِ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيّ بَيْنَ السَّمَاءَ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِلّونِي، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

٥ ـ ثم تتابع الوحي بعد ذلك بأحواله الهادئة نسبياً.

أنواع الوحي:

وينقسم الوحي إلى ثلاثة أنواع أخذاً من قوله تعالى في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾.

وهي كما يلي:

النوع الأول:

وهو ما كان بلا وساطة، وذلك بالإلقاء في القلب يقظة أو مناماً.

وتحقيقه أن يخلق الله في قلب الموحى إليه المعصوم علماً ضرورياً بإدراك ما شاء الله إعلامه به من كلام أو معاني.

وهو ما أشارت إليه الآية بقوله تعالى: ﴿**إلا وحياً**﴾ أي: وحياً مجرداً عن الوساطة.

النوع الثاني:

ما كان بوساطة إسماع الكلام الإلهي، من غير أن يرى السامع من يكلمه، ومن هذا النوع ما كان لموسى عليه السلام حين مناجاته ربه في جانب الطور.

وهذا النوع هو ما أشارت إليه الآية بقوله تعالى:

﴿**أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ أي: أو وحياً من وراء حجاب.

النوع الثالث:

ما كان بوساطة إرسال ملك ترى صورته المعينة،

ويسمع كلامه، كجبريل عليه السلام، فيوحي إلى النبي ما أمره الله أن يوحيه إليه.

وهذا النوع هو الغالب من أنواع الوحي بالنسبة إلى الأنبياء، فغالب أحوال الأنبياء أن يكون الوحي إليهم بوساطة رسل من الملائكة.

وهذا النوع الثالث هو ما أشارت إليه الآية بقول الله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

أي وحياً بوساطة إرسال رسول من الملائكة.

ولما كانت النبوات والرسالات وإنزال الكتب السماوية لا تتم إلا عن طريق الوحي؛ كان الإيمان به جزءاً من العقيدة الإسلامية.

* * *

الفصل السادس

الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى

وفيه ثلاث مقولات:

المقولة الأولى: نظرات تحليلية لركن القضاء والقدر الذي يجب الإيمان به.

المقولة الثانية: نصوص من أقوال أهل السنة والجماعة في بيان مذهبهم الوسط.

المقولة الثالثة: ملاحق مهمّة.

المقولة الأولى

نظرات تحليلية لركن القضاء والقدر الذي يجب الإيمان به

يطرح الناشئون السؤال التقليدي التالي: هل الإنسان مسيَّر أو مخيَّر؟

وللإجابة على هذا السؤال لا بدّ أن ننظر إلى واقع حال الإنسان من جهة، ثم إلى منطق العقل من جهة ثانية، ثم إلى نصوص الشريعة الإسلامية ومفهوماتها من جهة ثالثة.

أما واقع حال الإنسان فيبدو لنا فيه كما نشعر من أنفسنا أن أموراً تجري فيه دون أن يكون لإرادته دخل في ذلك، فهو بالنسبة إلى هذه الأمور مسيَّر تماماً، خاضع لسلطان القضاء والقدر خضوعاً كاملاً، ومن هذه الأمور حياته وموته وصحته ومرضه، ونماء جسمه وحركة فؤاده، ودورة دمه وهضم طعامه وشرابه، إلى

غير ذلك ممّا لا يحصى من الأمور التي لا تتوسط إرادة الإنسان في وجودها وتنفيذها.

ويبدو لنا أنَّ أموراً أخرى يعملها الإنسان نتيجة توجُّه إرادته لعملها، فإذا توجهت إرادته لعملها بتصميم، وتوجهت قدراته التنفيذية لتحقيق إرادته عملها، وهو يشعر بأنه يملك حريته في أن يعملها وفي أن لا يعملها، فهو غير مجبر في هذه الأعمال الخاضعة لحرية إرادته على أن يعمل أو لا يعمل، بخلاف ما هو مجبر فيه، فإنه لا يملك من نفسه كفّه ولا إيقافه، وفي حدود هذا القسم الذي يخضع لسلطان إرادته يستطيع الإنسان بإرادته الحرة أن يعمل الخير أو يتركه، وأن يعمل الشر أو يتركها، وأن يعمل المباحات له وأن يتركها، إذاً فالإنسان بالنسبة إلى هذا القسم مخيَّر أخذاً من ملاحظة واقع حاله.

والناس لا يؤاخذ بعضهم بعضاً فيما يجري فيهم من أمور خارجة عن حدود إراداتهم، فلا يحاسبون إنساناً على ما نزل فيه أو جرى منه بمحض القضاء والقدر، وإنما يؤاخذ بعضهم بعضاً فيما يفعلونه من أعمال بإراداتهم، ويعتبرون أن المسؤولية منوطة بالعمل الإرادي للإنسان، شعوراً منهم بالفرق الواضح الكبير بين ما هم مسيرون فيه، وما هم مخيرون فيه.

هذه هي النظرة إلى واقع الإنسان.

أما النظرة إلى منطق العقل فإن العقل يقضي بأن المسؤولية عن العمل لا بد أن تكون منوطة باستطاعة الإنسان على الفعل أو الترك، أما من لا يملك هذه الإستطاعة فلا يصحّ أن تتوجه إليه المسؤولية أصلاً، فالمقذوف بالمنجنيق على سبيل الإكراه إنسان ملجأ لا يملك تغيير وضعه الذي هو فيه، فإذا ارتطم بإنسان فقتله، فإنه غير مؤاخذ على ذلك، والمغلول بالسلاسل الذي يُجَرّ جرّاً على مجموعة من فراخ الدجاج فيقتلها بثقل جسمه، لا يعتبر مسؤولاً عما جرى منه، ولا مؤاخذاً عليه لأن ما جرى منه لم يكن إرادياً له، وحين نؤاخذه على ذلك فإننا نظلمه.

فالعقل يفرق حتماً بين العمل الإرادي فيجعله مناط المسؤولية، والعمل غير الإرادي فيعفي من جرى به أو صدر عنه من المسؤولية.

وأما النظرة إلى نصوص الشريعة الإسلامية ومفهوماتها، فقد أوضحها مذهب أهل السنة والجماعة، إذ أثبتوا أن للإنسان كسباً اختيارياً يحاسب عليه، ويعتبر مسؤولاً عنه، ويتوجه إليه التكليف الشرعي ضمن حدوده، وما ليس للإنسان فيه كسب اختياري فلا

مسؤولية عليه فيه، ولا يحاسب عليه، ولا يترتب له أو عليه فيه ثواب ولا عقاب.

فالْتَقَىٰ واقع الإنسان، ومنطق العقل، مع نصوص الشريعة ومفهوماتها، التي هدت أهل السنة والجماعة إلى مذهبهم الوسط، الذي ذهبوا إليه، وهو يقع بين طرفين متباعدين: مذهب المعتزلة، ومذهب الجبرية.

أما المعتزلة فقد أفرطوا إذ ذهبوا إلى أن الإنسان يخلق أفعال نفسه، ولا علاقة للقضاء فيها، وأما الجبرية فقد أفرطوا في الطرف المقابل إذ ذهبوا إلى أن الإنسان لا كسب له مطلقاً، بل هو كالريشة في الهواء، تصرّف المقادير أعماله على ما تشاء، دون أن يكون لإرادته أية حرية في اكتساب عمله.

وقد وقع هؤلاء وهؤلاء في مخالفة الواقع ومنطق العقل وأخطؤوا في فهم نصوص الشريعة الإسلامية.

فالإنسان وفق المذهب الحق الذي تدل عليه نصوص الشريعة الإسلامية مخيَّر ضمن دائرة حدود مسؤوليته، مجبر لا اختيار له في كل ما يجري فيه أو عليه من وراء حدود مسؤوليته.

ووجود الإرادة الحرة في الإنسان لم يتم إلا بقضاء الله

وقدره، ولو شاء الله لسلب منه ذلك، فلولا أن شاء الله أن يهبنا المشيئة الحرة لم تكن لنا مشيئة، بل كنا كالكائنات الأخرى التي لا مشيئة لها، وإنما تخضع أعمالها لسلطان القضاء والقدر بشكل مباشر، ويدل على أن الله وهبنا المشيئة الحرة بمشيئته قَوْلُ الله تعالى في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾.

أما النصوص ففيها ما يدل على أن الله خالق كل شيء، وفيها ما يدل على أن الله عليم بكل شيء، ما كان، وما هو كائن، وما سيكون في المستقبل، بما في ذلك أعمال العباد التي يكسبونها باختيارهم الحر، وفيها ما يدل على أن كل شيء بقضاء وقدر، وفيها ما يدل على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأن مسؤولية الإنسان مرتبطة بأعماله الإرادية التي يعملها باختياره الحر، وفيها ما يدل على أن الله حكيم عادل لا يظلم أحداً مثقال ذرة، وأن كل نفس رهينة بما كسبت، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأنه متى كان العمل صادراً عن غير إرادة الإنسان كان غير مسؤول عنه ولا محاسب عليه، وأن أعمال الله وأحكامه منزَّهة عن العبث.

وجمعاً بين هذه المفهومات المستفادة من نصوص الشريعة الإسلامية الصحيحة تتوضح لنا عقيدة أهل السنة والجماعة بجلاء.

١ ـ أن الله تعالى قد منح الإنسان إرادة حرة يكسب بها أعماله الاختيارية، ومنح الإنسان بالإضافة إلى ذلك سائر شروط امتحانه من عقل يدرك به التكاليف الربّانية، وقدرة على تنفيذ ما يكلفه من أعمال جسدية أو نفسية، وبذلك تكون مسؤوليته.

وحين تختل الشروط اللازمة لامتحانه وتكليفه ترتفع مسؤوليته. ولما توجهت إرادة الله لمنح الإنسان الإرادة الحرة استحال في الوقت نفسه أن تتوجه لسلبه هذه الإرادة وجعله مجبراً، نظراً إلى أنّه يستحيل أن تتناقض إرادة الله.

فمنح الإنسان الإرادة الحرة من خلق الله وبمشيئته، فهي مشمولة بالحقيقة القرآنية التي تدل على أن الله خالق كل شيء.

٢ ـ اختص علم الله بأنه كاشف لما كان، ولما هو كائن، ولما سيكون في المستقبل، بما في ذلك ما يصدر من الإنسان من أعمال اختيارية يعملها بإرادته الحرة.

والعلم صفة كاشفة للواقع، وليس من الضروري أن يكون العلم مقترناً بالإرادة والخلق، فالله يعلم ذاته ويعلم صفاته، مع أن كل ذلك واجب الوجود لم تتعلق به إرادة ولا خلق، ويعلم سبحانه المستحيلات مع أنها لا تتعلق بها إرادة ولا خلق، ويعلم سبحانه الاحتمالات الممكنة التي لم يختر إيجادها وخلقها، وهي من الأمور التي لم تتعلق بها إرادة ولا خلق.

فما كُلُّ معلوم خاضع لسبق إرادة الله وخلقه، وإذا تساءل إنسان كيف يعلم الله ما سيريد الإنسان باختياره الحر، كان جوابنا: هذا من خصائص العلم الرَّبّاني، وضمن هذه الحقيقة تفهم النصوص التي تثبت أن ما يعمله الإنسان من خير وشر مكتوب من قبل وجوده، أي: هو مكشوف بالعلم الرَّبّاني، ويؤمر الملك بكتابة هذا المعلوم.

وفي هذا نقول: لقد سبق في علم الله تعالى أن هذا الإنسان سوف يعمل بإرادته الحرة ما فيه سعادته، وأن ذلك الإنسان سوف يعمل بإرادته الحرة ما فيه شقاوته، وعلى أساس عمله الناتج عن إرادته الحرة تكون مسؤوليته ومحاسبته وجزاؤه.

٣ ـ ما يصدر من الإنسان من أعمال ذات آثار في

الواقع المادي لا يمكن أن تتعارض أو تتناقض مع قضاء الله وقدره العام، وسبق العلم الرَّبّاني بما سيعمله الإنسان وبما قضاه الله وقدره في كونه هو الذي أحكم الربط والتنسيق بين عمل الإنسان وبين قضاء الله وقدره، يضاف إلى ذلك أن قدرة الإنسان على التنفيذ لا تتم إلا بإمداد من الله وإقدار، فالله في الحقيقة هو الذي يخلقُ لنا ما نريدُ من أعمال ضمن قانون تسخيره للمسخَّرَات في الكون، ضمن أجسادنا وخارج أجسادنا.

وحين لا يكون لله في آثار كسب الإنسان قضاء ولا قدر، فإن الله يُحوِّل القدرة المسخَّرة للإنسان عن التنفيذ، أو يسلبها، أو يضع دونها عقبات.

وبناء على هذا نقول: إن المقتول يموت بأجله الذي قدَّره الله وقضاه، وعملية القتل تمت بكسب القاتل، فهو مؤاخذ عليه، والذي أحكم التنسيق والربط بين كسب الإنسان وقضاء الله وقدره، هو علم الله السابق بما سيفعله الإنسان، وبما قضاه الله وقدره في كونه.

إذن فلا يجري من آثار أعماله الناس في كون الله إلا ما قضاه الله وقدره، أو أذن به وسبق في علمه،

ولله في كل ما يقضي به أو يأذن به حكمة هو يعلمها، وقد يطلع بعض عباده على بعض حكمه.

ونستطيع أن نمثل لواقع الربط بين كسب الإنسان المعلوم لله وبين قضاء الله وقدره بالمثال التقريبي التالي:

تصور لو أنك جعلت مفتاح المصباح الكهربائي المعلق في غرفتك في مكان خفي لم يطلع عليه طفلك الصغير، وجعلته بحيث تستطيع أن تشعل به المصباح وتطفئه، دون أن يشعر بذلك طفلك، ثم أردت أن تجري امتحان إرادة طفلك، هل يطيعك أو يعصيك دون أن يفعل شيئاً له أثر مادي حقيقي، فقلت لطفلك:

إياك أن تنفخ على هذا المصباح، لئلا ينطفىء فإذا أطعتني كافأتك، وإذا عصيتني عاقبتك، ثم أخذت تراقب طفلك دون أن يشعر بمراقبتك، ولكن الطفل رجّح بإرادته الحرة جانب المعصية على جانب الطاعة، فأقبل نحو المصباح فنفخ عليه، وفي هذه اللحظة ضغطت أنت سرّاً على المفتاح فانطفأ المصباح الكهربائي.

إن الطفل سيشعر حتماً بأنه هو الذي أطفأ المصباح

بنفخته، ولكنك تعلم أنك أنت الذي أطفأته باستعمالك السبب الحقيقي.

وأما ما كان من الطفل فلم يكن إلا صورة برهن فيها على عصيانه لك، ومن ثم استحق في نظرك المعاقبة على مخالفته، ضمن الحدود التي قررتها لامتحانه.

ألا ترى أن هذا المثال التقريبي مشابه لجريمة قتل إنسان ظلماً وعدواناً، فالقاتل إنما يباشر السبب الصوري في عملية القتل، لكن القتيل لم يمت إلا في أجله المقرر له في قضاء الله وقدره، وبالطريقة التي قدّرها الله عليه، وقد اكتسب القاتل إثم مخالفته أمر الله وتوجيه إرادته الجازمة وما سخَّرَ الله له من قدرة إلى معصيته بقتل إنسان حرم عليه قتله.

٤ ـ يقع الإنسان ضمن دائرتين: دائرة كبرى لا كسب له فيها، فهو بالنسبة إليها مسيّر غير مخير، ودائرة صغرى له كسب فيها، وهو بالنسبة إليها مخير غير مجبر.

فهو بين يدي القضاء والقدر كالعصفور في قفص راعيه، فالعصفور في القفص متروك له حرية التنقل في

أركانه والأكل والشرب مما يقدم له من طعام وشراب، ومعاشرة أنثاه إذا قرن بينه وبينها في القفص، فإذا حمل العصفور كأس شرابه وأراقه وكسر زجاجها، أو رمى بطعامه خارج القفص أو نتف ريش قرينته وحاول أذاها وضرها، اعتبره صاحبه مذنباً، وعاقبه على ذلك.

أما إذا حمله راعيه مع القفص ووضعه في تيار الهواء البارد، أو غمس به في الماء، أو وضعه في مكان يتعرض فيه للأذى هو أو قفصه، فإنه لا يعتبر عصفوره مؤاخذاً مهما ناله من جراء ذلك من مصيبة أو أذى، أو نال قفصه، لأن راعيه يعلم أن العصفور لا كسب له في شيء من ذلك.

رفض رأي المعتزلة (ويسمون القدرية، أيْ نُفاة القدر):

أما رأي المعتزلة فهو رأي متطرف مرفوض، لمخالفته مفهومات النصوص الثابتة الصحيحة الصريحة، التي تثبت أنّ كل شيء بقضاء وقدر، وتثبت سبق العلم الإلهي بما يكون من أعمال اختيارية، وقد تعسّفوا في تأويل النصوص تعسفاً ظاهراً، ولووا أعناقها ليّاً منكراً.

رفض رأي الجبرية:

وأما رأي الجبرية فهو الرأي المتطرف الآخر، الذي

ذهب إلى نهاية الطرف المقابل، فزعموا أنه لا كسب للإنسان في خير أو شر، فخالفوا في ذلك منطق العقل، وما يدركه الحس في الواقع، ومفهومات النصوص الإسلامية الصحيحة الصريحة، وقد تعسَّف هؤلاء أيضاً في تأويل النصوص تعسفاً ظاهراً، وغيّروا المفهومات الثابتة للظلم والعدل، ولم يقدروا حكمة الله حق قدرها، وأجازوا التكليف بغير المستطاع، مخالفين بذلك قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ (٢٨٦).

وقوله في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴿٧﴾ . .﴾.

ولنفي رأي الجبرية وإثبات أن الله منح الإنسان حرية الإرادة في كل أعماله الإرادية، التي يعتبر مسؤولاً عنها، ومحاسباً عليها، في كل وجوه نشاطه الذي هو ساحة تكليفه في الحياة، وساحة اختباره وامتحانه، تتضح لنا الأدلة التالية:

أولاً: كل مخلوق يوضع موضع الامتحان لا بد أن يكون حُرّ الاختيار بين أكثر من طريق، أو أكثر من

عمل، وإلاّ لم يكن للامتحان مغزى. وكان عبثاً من العبث، ولا يفعل هذا عالم حكيم، ونحن نعلم من النصوص القرآنية أن الخالق منزه عن العبث.

ثانياً: يستحيل عقلاً أن يتوجه أمر التكليف الإلهي لكائن لا يملك في نفسه القدرة على اختيار الطاعة، وذلك لأن الله جلَّ وعلا حكيم، ولا يوجّه أوامر التكليف لمجرد العبث، وهو منزه عن العبث.

ثالثاً: ثبت في النصوص القاطعة أن الله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها، ولا يكف نفساً إلا ما آتاها، ومن لا يملك حرّية الإرادة في اختيار عمله لا يكون هذا الاختيار ممّا أتاه الله، فالله لا يكلفه لو كان كذلك.

ولما ورد التكليف علمنا أن هذا الاختيار من وسعه، ومما آتاه الله إيّاه، فسقط ادّعاء الإجبار.

رابعاً: ليس من العدل ولا من الحكمة أن يؤاخذ الله مخلوقاً على عمل لم يكن هذا العمل مظهراً من مظاهر اختيار المخلوق وإرادته. ولذلك نلاحظ في النصوص الإسلامية أن المؤاخذة والجزاء مقرونان بالأعمال الإرادية، ومتى سلبت الإرادة من عمل من الأعمال ارتفع التكليف وارتفعت المسؤولية.

وقواطع النصوص تبين هذه الحقائق. منها قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

أي: يؤاخذكم بما حلفتم من أيمان ناتجة عن كسب قلوبكم، وكسب القلوب هو توجه الإرادة، فارتفعت المؤاخذة عما كان من لغو الألسنة، ولم يكن من كسب القلوب.

ومنها قول الله تعالى في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

ومن هذا يظهر لنا ارتفاع المؤاخذة عن الأخطاء التي تخرج عن دائرة سلطة الإرادة، مما لا يملك الإنسان دفعه، وأن المسؤولية رهن بما تعمّدت القلوب من أعمال، وما تعمدته القلوب هو ما توجهت الإرادة التامة لفعله.

فإذا أضفنا إلى هذا قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

وقوله في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

وقوله الذي تكرّر في (الأنعام والأعراف والمؤمنون).

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾.

تبين لنا أن ورود التكليف يستلزم وجود الاستطاعة حتماً، وأول عناصر الاستطاعة وجود الإرادة الحرة، وتبين لنا أن المؤاخذة ترتفع متى سلبت الإرادة، لأن التكاليف ترتفع حكماً عند سلبها، فلا يمكن أن يوجد

في الواقع تناقض بين مقتضيات المشيئة الإلهية ومقتضيات أمر التكليف الإلهي، ومقتضيات العدل الإلهي.

والرأي الجبريّ الفاسد يدّعي سلب الإرادة مع أن التكليف متوجِّه، وأن المؤاخذة بعد ذلك متوجهة.

وهذا كما وضح لنا معارض للنصوص القرآنية، ومعارض لمنطق العقل، وبديهته، ومعارض لحكمة الله وعدله ورحمته وتنزه أفعاله وأحكامه عن العبث.

ويسأل الجبريون فيقولون: هل يفعل العاصي إذن معصيته معانداً لإرادة الخالق أم موافقاً لها؟

ونقول في الجواب: إن تصوير السؤال على هذا الوجه فيه مغالطة، فالقضية لا تقع بين احتمالين اثنين، ولكنها تقع بين احتمالات ثلاثة، وهي:

الاحتمال الأول:

توجيه المشيئة الرّبّانيّة لإجبار المخلوق على الطاعة.

الاحتمال الثاني:

توجيه المشيئة الرّبّانيّة لإجبار المخلوق على المعصية.

الاحتمال الثالث:

توجيه المشيئة الرّبّانيّة لجعل المخلوق ذا إرادة حرة غير مجبرة.

وقد توجهت المشيئة الرّبّانيّة فعلاً لاختيار الاحتمال الثالث بالنسبة إلى الناس والجن، فاستحال أن تتوجه إلى أضدادها في الوقت نفسه.

وحينما يختار المخلوق أمراً ممّا جعل الله له فيه سلطة الاختيار، فإن اختياره لذلك الأمر لا يعتبر بحال من الأحوال معانداً لإرادة الله في شيء، لأن الله تعالى هو الذي أراد أن يمنحه سلطة الاختيار ليمتحنه ويختبره، كما أنه لا يقتضي أن يكون الله جل وعلا هو الذي أجبره على أن يختار هذا الاختيار، ولا يقتضي أيضاً أن يكون الله جل وعلا راضياً عن كل ما يختاره المخلوق ذو الإرادة الحرة.

ويظهر لنا هذا الموضوع تماماً في تجاربنا الإنسانية، فإن من نمنحه حرية التصرف في عمل ما قد يفعل ما يسرنا ويرضينا، وقد يفعل ما يَسُوؤنا ويغضبنا، مع إمكاننا أن نعزله عن ذلك العمل، ونسلبه حرية التصرف فيه، ولا يكون عمله معانداً لإرادتنا، بل قد

نمد له ونبقي له طاقة العمل، وساحة التنفيذ بين يديه، لنمتحنه ونختبره، وقد نوبّخه ونؤدبه، وقد ننذره ونحذره، حتى يحين وقت مؤاخذته، ونحن في كل ذلك نشاهد سوء تصرفه، وقد نرى من الحكمة أن لا نعارضه، وأن لا نضع العراقيل في طريقه أو نكفه عن العمل الذي منحناه فيه حرية التصرف، وقد نرى من الحكمة أن نملي له، ليصلح من تصرفه، ويقوِّم من سلوكه، حتى يجتاز مدّة الامتحان المقرّرة بنجاح، وعملنا هذا لا شيء فيه من التناقض، بل هو من مقتضيات الحكمة التي تقتضيها ظروف الامتحان الأمثل.

وفي ساحة السيارات الكهربائية داخل معرض الألعاب الرياضية مثال للامتحان الذي لا يملك فيه المشترك غير التوجيه، فالطاقة الكهربائية المسيِّرة يمد بها المشرف على الامتحان، والسيارة تملكها جهة الامتحان، والمشترك ليس له إلا كسب التوجيه، فإذا أحسن فيه اجتاز امتحانه بنجاح، وإذا أساء فيه كان من الخائبين.

* * *

المقولة الثانية

نصوص من أقوال أهل السنة والجماعة في بيان مذهبهم الوسط

١ ـ جاء في شرح الفقه الأكبر للإمام أبي منصور الماتريدي: قال الإمام أبو حنيفة وأصحابه: الخلق فعل الله وهو إحداث الاستطاعة في العبد، واستعمال الاستطاعة فعل العبد حقيقة لا مجازاً، فسلموا بذلك من مذهب القدرية ومذهب الجبرية، وقال أبو حنيفة: إن الاستطاعة التي يعمل بها العبد المعصية هي بعينها تصلح لعمل الطاعة وهو معاقب على صرف الاستطاعة التي أحدثها الله فيه، وأمره بأن يستعملها في الطاعة لا في المعصية، فصرفهاإلى المعصية.

٢ ـ روي عن الإمام أبي حنيفة، أنه سأل الإمام جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما، فقال: يا ابن رسول الله هل فوض الله الأمر إلى العباد؟ فقال: الله

تعالى أجلّ من أن يفوض الربوبية إلى العباد، فقال له: هل يجبرهم على ذلك؟

فقال: الله تعالى أعدل من أن يجبرهم على ذلك، ثم يعذبهم فقال: وكيف ذلك؟ فقال: بين البين، لا جبر، ولا تفويض، ولا إكراه ولا تسليط.

٣ ـ قال العلامة سعد الدين التفتازاني: والحق ما قاله بعض أئمة الدين: أنه لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين.

٤ ـ ذهب الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وإمام الحرمين إلى أن القدرة الحادثة مؤثرة بإذن الله، وتمكينه، وإقداره، فلا يلزم اجتماع قدرتين مؤثرتين بالاستقلال في محل واحد. وقال إمام الحرمين في الرسالة النظامية: هذا والله هو الحق الذي لا غطاء دونه، ولا مراء به لمن وعاه حقّ وعيه.

٥ ـ روي أن علي بن أبي طالب أجاب السائل عن القدر بقوله: «أما إذا أبيت فإنه أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض».

٦ ـ كتب الحسن البصري إلى الحسن بن علي يسأله عن القضاء والقدر، فكتب إليه الحسن بن علي رضي الله عنه:

«من لم يؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر، وإن الله تعالى لا يطاع استكراهاً، ولا يعصى بغلبة، لأنه تعالى مالك لما ملكهم، وقادر على ما أقدرهم، فإن عَمِلُوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما عملوا، فإن لم يفعل فليس هو الذي جبرهم على ذلك، ولو جبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب، ولو جبرهم على المعصية لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان ذلك عجزاً في القدرة، ولكن له فيهم خفيّ المشيئة، غيَّبها عنهم، فإن عملوا بالطاعة فله المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم والسلام».

وهكذا كان فهم الأولين، وعلى هذا المنهج الوسط استقر مذهب أهل السنة والجماعة، وهو ما يفهم من كلام العلامة الإمام ابن تيمية في القدر، كما جاء في المجلد الثامن من مجموع الفتاوى.

* * *

المقولة الثالثة

ملاحق مهمّة

١ ـ ما تجري به المقادير الربانية مما ظاهره شر هو في حقيقة أمره خير:

لقد علمنا أن الله حكيم، والحكيم لا بد أن تكون أفعاله حكيمة، ولا بد أن يكون قضاؤه وقدره صادرين عن حكمته، والحكمة هي في جانب الخير المطلق دائماً.

ولكن قد يلزم من فعل الأمر الحكيم الذي هو خير لوازم تبدو في ظاهرها وبحسب تصور الناس لها أنها شر، ولدى التحقيق في باطن أمرها يتبين أنها خير، والحكم عليها بأنها شر هو من قصور نظر الناس، ووقوفهم عند حدود الظواهر التي تخالف ما يحبون وما يشتهون، فحكمهم عليها حكم شخصي، وليس حكماً موضوعياً.

والشر الوحيد في الوجود هو ما يصدر من المخلوق حينما يخالف أوامر الله ونواهيه ووصاياه لعباده.

أما أفعال الله تعالى فهي بمنظار الحقيقة من قبيل الخير المطلق، وإن كان بعضها بالنسبة إلى تصور الناس وإدراكاتهم الحسية الآنيّة شراً.

ولما وهب الله الإنسان في هذه الحياة الدنيا الإرادة الحرة. ووضعه موضع الامتحان ليختار بإرادته الخلود في النعيم عن طريق الطاعة، وكان هذا خيراً عظيماً منحه إيّاه وشرَّفه به، اقتضى ذلك أن يقلّبه على ألوان وصور وأنواع شتّى ممّا يحبّ ومما يكره، ليشكر فيما يحب فلا يطغى ولا يكفر، وليصبر فيما يكره فلا يضجر ولا يكفر، وما يكره لا بد أن يكون مؤلماً، وهذا المؤلم يراه الإنسان مصيبة، ويراه سوءاً، ويراه شراً، ولكنه في الواقع لون من ألوان الامتحان لا بد منه وفق مقتضيات الحكمة لتحقيق النجاح الصحيح لمن أراده، وليكون عقبة فشل وخيبة لمن لم يعبأ بظروف الامتحان.

ولدى البحث العميق في واقع حال النعم والمصائب التي تنزل بالناس بقضاء الله وقدره، يتبين لنا

أنها أمور اقتضتها حكمة الخالق العظيم في عالم الابتلاء، وعالم الابتلاء هو الطريق الحتمي لعالم الجزاء، وكلها لدى الحقيقة مشمولة بقاعدة الخير المطلق.

إنّ ألوان النعم التي يسميها الناس خيراً، وألوان المصائب التي يسمِّيها الناس شراً ممَّا لا دخل لإرادة الإنسان فيه، لا تعدو أنها مظاهر تكمن فيها حكمة الخالق العظيم، فليس شيء من المصائب الربانية لدى التحقيق بشر لذاته، وإن كان يسمى في مفهوم الناس شراً، نظراً إلى صورته الظاهرة المؤلمة، كما يسمي قصير النظر من المرضى عمل الطبيب الجراح الناصح شراً، متى شعر بألم من عمله، وكما يسمى الطفل وسائل التربية الحازمة التي يربيه بها أبوه العاقل العالم الناصح شراً، إذا آلمه في شيء، أو حجر على هوى من أهوائه الجانحة عن سبيل الرشاد، وكما يسمّي الطالب قصير النظر وفرة ما يُقدّم له من معارف متعلقة بمادة مقررة عليه شراً، ويسمي صور الامتحان التي يمتحنه بها مُدَرّسه الناصح الأمين، ليكتشف مدى تحصيله شراً كذلك، وكما يسمي شدة ملاحظة المراقبين له شراً، مع العلم بأن هذه الأمور كلّها وسائل

من وسائل الحياة التي لا يتم تحقيق الخير العظيم إلا عن طريقها.

وحين نبحث عن الغايات الحكيمة التي تهدف إليها مقادير النعم والمصائب التي تنزل بقضاء الله وقدره، تتبين لنا الغايات التالية:

الأولى: الابتلاء، وذلك لأنه قد تقضي الحكمة في بعض الأحيان أن يكون الامتحان بالنعمة، وقد تقضي الحكمة في أحيان أخرى أن يكون الامتحان بالمصيبة، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: نمتحنكم بما تسمونه شراً من مصائب، وبما تسمونه خيراً من نعم، ومعلوم أن أصل الامتحان هو من قبيل الخير، لأنه هو الطريق إلى النعيم الخالد لمن أراده، ويقول الله أيضاً في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

ومن أمثلة الامتحان بما هو مكروه وما هومحبوب

في تصرفاتنا الإنسانية: ما يجري من امتحان في مختبر الكيمياء، فقد تكون المادة المطلوب تحليلها كريهة الرائحة منتنة، ولكنها هي الوسيلة المناسبة لنجاح الطالب، وظفره بما ينشده من شهادة، وقد تكون المادة المطلوب تحليلها طيبة الرائحة حسنة المنظر، فتشغل الطالب عن واجبه، ثم ينتهي الوقت دون أن يقدم عملاً يحقق له النجاح المنشود.

فهل إعطاء المادة الكريهة التي كانت و سيلة لنجاح الطالب خير أو شر؟ الحقيقة أن الامتحان خير، لأنه هو الوسيلة لتحقيق الخير، والامتحان بالمكروه خير، لأنه قد يكون الوسيلة الفضلى للامتحان الأمثل.

الثانية: التربية والتأديب، فقد تقضي الحكمة أن نربّيَ من نربيه ونؤدِّبَ من نؤدِّبه، بما يحب تارة، وبما يكره تارةً أخرى.

فقد تكون التربية بتحمل المتاعب المؤلمة، وبالدخول في المآزق الحرجة، وبمعاركة المخاوف والمشاق، وقد تكون التربية بالعطاء والتحبب والثناء، ولكل منهما حالة ملائمة فيمن نربيه.

وكذلك يربي الله عباده ويؤدِّبهم بالمصائب تارة وبالنّعم تارة أخرى.

ومن التربية الربانية للمسلمين بالمصيبة ما أنزل بالمسلمين في أُحد وفي حُنِين. فما كان في أُحد علَّم المسلمين أن لا يخرجوا عن واجب الطاعة للقيادة. وما كان في حنين علَّم المسلمين ألا يغتروا بكثرتهم، ولا يستهينوا بعدوهم.

الثالثة: الجزاء المعجَّل، فقد تقضي الحكمة العظيمة بأن يجازي الله بعض عباده على بعض أعمالهم جزاءً معجلاً على ما عملوا من خير أو شر.

فيعطيهم شيئاً من ثوابهم على ما فعلوا من خير، أو يصيبهم بشيء من المصائب على ما فعلوا من شر.

وللجزاء المعجَّل في الدنيا أثر ظاهر في حفز همم أهل الطاعة للاستزادة من فعل الخير، وفي تذكير أهل المعصية حتى يتوبوا، وينتهوا عن فعل الشر، وفي كل منهما عناية ربانية جليلة.

والمعجل من الثواب في الدنيا أنواع كثيرة لا تحصى من الرغائب المادية والمعنوية، منها النصر والتأييد والعز والسؤددومنها الشعور بالسعادة والطمأنينة، ومنها اللذة بفيوض المعرفة الإلهية.

والمعجل من العقاب في الدنيا أنواع كثيرة لا

تحصى مادية ومعنوية، منها العيش الضنك، ومنها الفشل والخذلان، ومنها الشعور بالشقاء والقلق، ومنها ضيق الصدر، وتبلبل الفكر، واضطراب النفس.

وقد يكون معجل العقاب تكفيراً وتطهيراً.

خاتمة:

لدى ملاحظة هذه الحقائق يعلم المؤمن أن ما يجري به القضاء والقدر كله خير، وليس شيء منه في الحقيقة شراً، لذلك يكون المؤمن مستقر النفس مطمئناً سعيداً في حالتي النعمة والمصيبة، والرخاء والشدة، ولئن كان حسّه الجسدي في الألم، فإن شعوره الروحي والقلبي في الرضا عن الله، والتسليم التام له، ولا تكون هذه السعادة القلبية والروحية لغير المؤمنين، وفي ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن صهيب: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له».

٢ ـ مسؤولية الإنسان عن أعماله الإرادية:

حين يتم للمسلم التصور الصحيح لمفهوم القضاء

والقدر، وفق الفهم الذي كان عليه السلف الصالح، وأدركه أهل السنة والجماعة من بعدهم، فإنه لا يخلط بين مواقع المسؤولية الإنسانية وما يجري بمحض القضاء والقدر.

أما ما يجري بمحض القضاء والقدر فإنه يستقبله بالتسليم والرضا، ويعلم أنه عين الحكمة التي اقتضتها إرادة الحكيم العليم.

وأما ما يقع في دائرة المسؤولية الإنسانية فإنه يباشر فيه الأسباب التي اقتضتها سُنة الله في كونه، وأمرت بها شريعة الله فيما أنزل على رسوله، ويحاسب نفسه ويحاسب الآخرين وفق حدود المسؤولية التي ناطها الله بالمكلفين من عباده.

فلا يلقي نفسه في التهلكة اعتماداً على ما تقضي به المقادير الربانية، لأن هذا من حدود المسؤولية الإنسانية، ولا يترك أسباب الكسب التي أمر بها الله، اعتماداً على ما تقضي به المقادير الربانية في الرزق، لأن مباشرة أسباب الكسب من حدود المسؤولية الإنسانية، ولا يترك الجهاد في سبيل الله لنصرة دين الله ورد كيد أعداء الله، اعتماداً على ما تقضي به المقادير الربانية من النصر والهزيمة، لأن القيام بواجب الجهاد

في سبيل الله من حدود المسؤولية الإنسانية، ولا يترك إعداد المستطاع من القوة، اعتماداً على قوة الله القادر على نصر أوليائه على أعدائه، لأن إعداد المستطاع من القوة لإرهاب أعداء الله وأعداء المسلمين من حدود مسؤولية المسلمين، وهكذا إلى سائر الأسباب التي تقع ضمن حدود المسؤولية الإنسانية، وضمن حدود التكاليف الربانية.

بهذا الفهم السليم والعمل السببي الذي أوجبه الله على الناس، وجعله من سنن كونه، ظفر المسلمون الأولون بالمجد العظيم، واحتلوا مركز قيادة الناس إلى الحق.

٣ ـ التوكل والاعتماد على الله:

بعد أن يتخذ المسلم مختلف الأسباب المادية التي أمر الله باتخاذها، لتحقيق النتائج المطلوبة التي تقع ضمن دائرة المسؤولية والتكليف، يلاحظ أن ما يرجوه من نتائج محاط باحتمالات فشل كثيرة، لا تملك استطاعته سد ثغراتها، وتفادي مخاطرها، فهو من كل جانب مهدَّد بأن لا تنفعه أسبابه ولا وسائله، لذلك فهو يباشر الأسباب وفق سنن الله في كونه وأوامره في شريعته، ويلتجىء بقلبه إلى الله، متوكلاً عليه، معتمداً

على معونته، مستعيناً بقوته لتحقيق ما يرجوه من نتائج يباشر أسبابها على قدر استطاعته، ويسأله تعالى أن يدفع عنه العقبات، ويمنع عنه العراقيل، ويمده بالتأييد والتسديد والتوفيق والمعونة، معتقداً أن الأسباب وحدها لا تنفع إلا بإذن من الله وتمكين.

فالتوكل على الله، والاعتماد عليه، والاستعانة به، أمور من أعمال قلب المؤمن، فإذا امتلأ بها قلب المؤمن وهو يباشر الأسباب المادية على مقدار استطاعته، ازدادت قوته المعنوية في الاندفاع لتحقيق النتائج المرجوة، ثقة منه بأن الله يسدده ويؤيده، وسيحقق له ما يرجو إذا علم أن فيه الخير.

وحين لا تتحقق النتائج المرجوة بعد اتخاذ الأسباب المستطاعة يلاحظ المؤمن أن الله قد قضى له ما هو خير، وادَّخر له الأفضل والأحسن، فهو يستقبل عدم تحقيق النتائج بمثل استقباله لها فيما لو تحققت، وهكذا يكون مطمئن القلب رضيّاً، ويكون في أعماله باذلاً أقصى ما يستطيع، متفائلاً واثقاً بأن الله لا يقضي له إلا ما هو خير.

وهكذا يكون المؤمن سببياً في أعماله المادية، متوكلاً على الله في حركاته النفسية والقلبية، راضياً بما

يقضيه الله ممّا يحب ومما يكره، مسلِّماً تسليماً كاملاً.

٤ ـ أثر الإيمان بالقضاء والقدر:

وهكذا فإنّ المؤمن العاقل متى صحّ فهمه لحقيقة القضاء والقدر، وامتلأ قلبه عقيدة بأنّ كلّ ما يجري له من نِعَم، وما ينزل به من مصائب، أمرٌ محتوم مرسوم، مرادٌ لله تعالى، مقضي بقضائه، محدّد بتقديره، منفّذ بقدرته، وراقب مع ذلك صفات الله العظيمة التي منها: علمه وحكمته، ورحمته وعدله، ثم وضع بين عينيه قوله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

إنه متى آمن بهذا، وفهمه فهماً صحيحاً، اطمأنّ قلبه لكل ما يجري في الكون، ممّا لا كسب له فيه، ورضي بمراد الله مهما كان ذلك الأمر محزناً أو سارّاً، وانتقل من الأكوان إلى مكوِّنها، فارتقى في سلّم محبة الله والقرب منه.

ولئن صدق القائل إذ قال لممدوحه: «فما لِجُرْحٍ إذا أَرْضاكُمُو أَلَمُ»، فإنَ المؤمن الصادق ـ وهو في مقامِ

حبّه لربّه ـ حريٌّ بأن يقول مطمئنّ القلب: رضيت بالله ربّاً، وبقضائه حكماً، إنّه وليي، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وبذلك يُفرِغُ الله على قلبه مشاعر من السعادة لا يجدها في شيء آخر من محابِّ الدّنيا ومسرّاتها.

ولمّا تحلّى المسلمون الأولون بهذه العقيدة كانوا سادة وقادة، وكانوا خير أمّة أخرجت للناس، وتحققت لهم السعادة العظمى في الدنيا والآخرة. ولمّا وضحت هذه العقيدة في نفس عمر رضي الله عنه قال: «لا أبالي على أيّها أُصْبِح أو أُمْسِي: على ما أُحِب أو على ما أكره، لأنني لا أدري أيّهما خِيرٌ لي».

وصدق رسول الله صلوات الله عليه إذ يقول فيما رواه مسلم عن صهيب: «عجباً لأمر المؤمن! إنّ أمره كلّه له خير ـ وليس ذلك إلاّ للمؤمن ـ إنْ أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له» هذا بالنسبة إلى ما يدخل في دائرة القضاء والقدر الكبرى.

وأمّا ما يدخل ضمن دائرة كسب الإنسان، فإنّ المؤمن الصادق إن وجد من نفسه الاستقامة والطاعة

وابتغاء مرضاة الله في أعماله، فإنه يحمد الله على توفيقه، ويشكره على ما أنعم عليه من فضل، وإن وجد من نفسه غير ذلك عاد عليها باللّوم والتثريب والندم، وبالحزن الشديد على ما فرَّط في جنب الله، ثم يقبل على ربّه تائباً منيباً، مستغفراً من ذنبه، ذاكراً قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

خاتمة الكتاب

هذا ما بدا لي أن ألخّصه في هذه الوجيزة ممّا يتعلّق بأركان العقيدة الإسلامية، التي يجب على كلّ مكلّف مسؤول عند الله يوم الدين أن يؤمن بها.

وأسأل الله أن ينْفَعَ ويبصّر بها الذين يريدون أن يتعرّفوا على أركان الإيمان، مقرونةً بالبيانات والأدلة الكافيات لطلاب الحق الحريصين على الاستمساك به، ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون.

ومن أراد المزيد من البحوث والتفصيلات المتعلقة بهذا الموضوع فليرجع إلى كتابي الموسع (العقيدة الإسلامية وأسسها) وإلى الكتب الإسلامية الأخرى المتخصصة بشرح العقائد الإسلامية المقتبسة من الكتاب والسنة.

وإلى الله نضرع أن يصحح اعتقادنا، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يستعملنا في أحبّ الأعمال التي ترضيه عنّا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

مكة المكرمة في غرّة رجب لسنة ١٤٠٢ هجرية.

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

سلسلة
رسائل تذكير وتبصير
صدر من هذه السلسلة